

روايات مصرية للجيب
33
ما وراء الطبيعة
أسطورة
أرض المغول

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

روايات مصرية للجيب

٦٢٥٨٩



د. أحمد خالد توفيق

أسطورة أرض المغول

فى أرض المغول يغدو الغد ضربًا من أحلام اليقظة .. فى أرض المغول يصير الموت نشاطًا يوميًا على قارعة الطريق لايثير اهتمام أحد .. فى أرض المغول لاتوجد سوى لعبة واحدة هى البقاء حيًا ، ورياضة واحدة هى الهرب ، وأمنية واحدة .. هى أن تطيش الرصاصة القادمة بعيدًا عنك !

الثمن فى مصر
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

العدد القادم :
أسطورة الشاحبين

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

33

روايات مصرية للجيب

•

ما وراء الطبيعة

أسطورة أرض المغول

روايات مصرية للجيب

●

ماوراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

●

مصنَّف مصرى مائة فى المائة
لا تشوبه شبهة الترجمة أو الاقتباس
أو النقل عن أية قصص أوربية .

●

إشراف

الأستاذ/ حمدى مصطفى

●

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع - المطابع ٨، ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية - منافذ البيع ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقى الفجالة - ٤ شارع الإسحاقى بمنشية البكرى روكسى مصر الجديدة - القاهرة ت: ٢٨٢٣٧٩٢ - ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٥٨٦١٩٧ فاكس - 202/2596650 ج.م.ع.

روايات مصرية للجيب

ماوراء الطبيعة

روايـــات تحـبس الأنفـــاس
من فرط الغموض والرعب والإثارة

33

أسطورة أرض المغول

بقلم :
د. أحمد خالد توفيق


الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

مقــدمة

مرحبًا بكم ..

الآن ـ وقد حانت الساعة السابعة ـ يمكننا أن نبدأ جلسة أخرى مع الشيخ (رفعت إسماعيل) ، الذى كان بودنا لو اعتبرناه شبيهًا بـ (شهرزاد) ، لولا سعاله المزعج وتجاعيده وصلعته البراقة ونحوله الذى لا يُصدّق ..

(شهرزاد) كانت مضطرة لأن تحكى قصصًا مسلية للأبد ؛ حتى لا يطيّر الأخ (شهريار) رأسها الجميل ..

و (رفعت) مضطر لأن يحكى قصصًا يحاول أن تكون مسلية ؛ حتى يجد سببًا واحدًا لاستمراره فى الحياة بعد الستّين .

انتهى وقود (شهرزاد) من الحكايات بعد ألف ليلة وليلة .. فمتى ينتهى وقود (رفعت إسماعيل) العجوز ؟ بعد قصة ؟ بعد خمسين ؟ بعد مائة ؟

مازال فى جعبتى الكثير على كل حال .. وفى الغالب سأقضى نحبى وأنا أتكلّم ..

سألنى كثيرون منكم عما حدث لـ (هارى) بعد قراءة التعاويذ الاسكتلندية (فى رعب المستنقعات) .. وسألنى آخرون عن مصير (هارى) والدمية فى (حكايات التاروت) ..

هذه هى مشكلتى .. إننى أترك - فى زحفى للأمام - جيوبًا مطوّقة لا تنتهى .. وعلىّ أن أعود لأقضى عليها .. هكذا تقضى استراتيجية (ليدل هارت) ..

سأعود لهذين الجيبين وجيوب أخرى كثيرة فى الكتيبات القادمة ..

وهأنذا أعود لجيب قديم منسى .. (سالم وسلمى) .. لقد أرسلا لى عدة مغامرات من مغامراتهما العجيبة فى أبعاد أخرى .. وكنت قد وعدتكم بأن أقدم لكم (أرض المغول) .. وهو وعد تأخرت فى الوفاء به خمسة وعشرين كتيبًا .. وبضعة أعوام .. لكنى لن أنتظر أكثر ..

فى الصفحات القادمة أترك للأخ (سالم) الصفحات تمامًا .. وأعدكم بأن أعود فى نهاية الكتيب لأقدم رأيًا سخيفًا لا لزوم له على الإطلاق كعادتى ..

إذن اقلبوا الصفحة أو انظروا لليسار ..

وهلموا إلى (أرض المغول) ..

★ ★ ★

مقدمة أخرى

اعتاد (رفعت إسماعيل) العجوز أن يقدّم لكم في أول صفحتين أو ثلاث من قصصه ، ملخصًا سريعًا للأجزاء السابقة .. وغالبًا ما يكتبه تحت عنوان (فلننعش ذاكرتنا) أو أى عنوان سخيف آخر ..

والحق أننى أجد فى هذا نوعًا من التعنّت ، يفترض أن القارئ له ذاكرة متطايرة لا تصمد فيها التفاصيل .. ولهذا لن أضايقكم بملخص من هذا النوع ، أو - على الأقل - بهذا الطول المفرط ..

أنا (سالم شحاته) .. وزوجتى (سلمى شحاته) .. ونحن نسختان كاملتا التشابه .. لكن هذا لا يعود إلى تجارب الاستنساخ - التى يتحدّث عنها الجميع - لكن يعود إلى أننا من عالمين متشابهين فى مجرتين مختلفتين ..

و(سلمى) هى التى تملك جهاز (ناقل الجزيئات) الذى ينقلها باستمرار وسط أبعاد أخرى .. ومن قرأ الكتيب الثامن يعرف أننا غادرنا الكوكب (٣٢٢ - ب - ٣) هاربين بجلدنا من عصابة كادت تفتك بنا ..

هـذا كـاف جـدًّا .. ويمكننـا أن نبـدأ السـرد دون تعقيدات .. أنتم الآن تعرفـون قواعد اللعبـة .. فلمـاذا لا تنطلق صفارة بدء اللعب ؟!

★ ★ ★

١ ـ أيـن نحــن ؟

تمّ التجسد فى قبو مظلم رطب عطن الرائحة متسخ مهجور ..

برغم هذا كنا قادرين على أن يرى بعضنا البعض .. وأدركت أننا نبدأ مغامرتنا فى هذا العالم الجديد فى أسوأ حال من البعثرة و(البهدلة) .. فالدماء تسيل من شفتى ومن أنفى .. وقد فقدت فردة حذاء ، بينما شعر (سلمى) قد تحول إلى حزمة من الكتان .. وأنفها أحمر كأنف إسكافى ثمل من أبطال (تشيكوف) ..

ـ « هل أنت بخير ؟ »

وهو سؤال سخيف لأننا نشعر بذات الأشياء معًا ، بنفس الطريقة .. ومعنى أن كل عظمة من عظامى مهشمة ، هو أنها ليست أفضل حالاً ..

ـ « لقد فررنا فى الوقت المناسب .. »

ـ « دقيقة أخرى كانت ستحولنا إلى لحم مفروم .. »

ثم إنها جلست متكئة على ذراعيها المفرودتين .. وسألتنى :

ـ « قبو آخر ؟ »

ـ « هذا واضح .. إنه بدروم وكر العصابة فى هذا الكوكب .. وبالطبع يقع خارج (حلوان) هذا الكوكب .. »

وللأسف كان ضغطها على الأرقام عشوائيًّا فى (ناقل الجزيئات) ، لذا صار من المستحيل أن نعرف رقم هذا الكوكب .. على كل حال لن يحدث هذا فارقًا كبيرًا .. إنها أرض أخرى وكفى .. أرض تشبه أرضنا هذه فى أكثر الأشياء وتختلف عنها فى أشياء معينة لها أثر لا يُصدق ..

ونهضنا متثاقلين .. وبالطبع نزعت فردة حذائى الباقية طلبًا للتماثل .. ثم اتجهنا إلى مخرج القبو .. كان الظلام دامسًا لكن (سلمى) ألقت ملاحظة عابرة :

ـ « يبدو أن هذه أرض بلا فئران .. »

تفكّرت فى كلامها حينًا .. حقًّا لم نر فأرًا واحدًا فى هذا القبو .. لكن لا معنى لهذه الملحوظة :

ـ « لا يوجد فأر هنا .. لكنى لم أر فى حياتى الفئران تقف لاستقبالى بلافتات الترحيب فى كل مكان أزوره .. لنقل إن هذا قبو نظيف .. »

تشممتْ الهواء وقد تقلص وجهها .. وقالت :

ـ « بالعكس .. العطن فى كل مكان .. والقاذورات .. لو لم يوجد فأر هنا فلا فئران فى هذه الأرض أساسًا .. »

وبدأنا نرقى فى درجات السلّم المتصدعة ذات الصرير .. يوجد باب فى أعلى الدرج .. لكنه موارَب لحسن الحظ ..

حبسنا أنفاسنا .. ومددت يدى إلى المقبض لأزيد مجال الرؤية حينما سمعنا أنّة .. أنّة صادرة من خلفنا لا من أمامنا ..

لقد كان هناك أحد فى القبو معنا ! تبًّا لهذا الكلام .

ـ « هل سمعت ؟ »

هزّت رأسها أن نعم .. وازدادت التصاقًا بى ..

هنا لمحنا شيئًا يتوهج فى ركن القبو البعيد .. شيئًا أقرب إلى عود ثقاب يتحرّك ليعانق فتيل شمعة .. ثم غدا الضوء واضحًا .. واستطعنا أن نرى امرأة ..

كانت راقدة فوق قطع من الخرق تم حشدها كيفما اتفق لتكون فراشًا بدائيًّا .. وجوارها دورق ماء مكسور وشمعة وسكين ..

أما عن المرأة نفسها فلم تكن تثير الذعر لأنها

مخيفة .. بل لأنها مذعورة أكثر منا .. إنه ذلك النوع من الخوف الذى يجعل العينين تجحظان والشفتين تتقلصان .. ويغدو المرء معه مرعبًا أكثر من أى شبح ..

وأدركنا ـ برغم هلعنا ـ أنها شقراء زرقاء العينين .. وأنها مريضة .. ربما هى تُحتضر .. ودون أن نعرف سببًا لذلك رحنا ننزل فى الدرج ، متشابكى اليدين ، مسحورين عاجزين عنِ الرحيل دون أن نفهم ..

وسمعناها تقول شيئًا بصوت مبحوح جافّ ..

ـ « بلـ .. يز .. دون كيـ .. ل .. مى ! »

احتجنا إلى بعض الوقت كى نفهم أنها تتكلم الإنجليزية .. وأنها تقول لنا ألا نقتلها من فضلنا .. لا بأس .. إنها مذعورة مثلنا .. هذا يجعلنا أدنى إلى التفاهم ..

ولكن ما سرها ؟ من وضعها هاهنا ؟ هل هى مخطوفة ؟

دنوت منها .. وركعت جوارها أكثر لأفهم وأسمع .. ومن عينيها فهمت أنها تدنو من الجنون أو جنّت فعلاً .. مددت يدى كى أربّت على ذراعها مترفقًا .. لكن (سلمى) صاحت فى حزم :

ـ « (سالم) ! لا تفعل ! »
التفتّ لها غير فاهم .. فقالت بنفس الحزم :
ـ « ابتعد عنها ! قف هنا بجوارى .. »
تراجعت .. ووقفت حيث طلبت .. إن (سلمى) أحكم منى وأسرع تفكيرًا .. ربما لفارق السن بيننا .. لهذا عرفت أن لديها سببًا مقنعًا ..
قالت وهى تشير لأسفل :
ـ « هل ترى ؟ يوجد خراج ضخم فى خُنّ فخذها .. »
كان الغطاء منحسرًا عن رجل المرأة .. واستطعت أن أرى ما تقول (سلمى) .. يبدو لى هذا المشهد مألوفًا .. ولكن أين ؟ أين ؟ فأوضحت لى الأمر :
ـ « خراج فى خُنّ الفخذ .. وحمى .. وفئران لا وجود لها .. بالتأكيد ماتت كلها .. إن خبرتى الطبية معدومة لكن كل هذا يشير إلى .. الطاعون(★) ! »
هبطت علىّ الكلمة كصاعقة كهربائية .. فتراجعت للوراء ..
كانت المرأة تحاول جاهدة الوصول لنا للتمسك

(★) وباء الطاعون : يبدأ بموت الفئران .. من ثم تغادر البراغيث أجسادها لتغزو أجساد البشر ..

بقدمى .. لهـذا واصلـت الـتراجع فـى ذعـر .. فلنغـادر هذا القبو حالاً يا (سلمى) ..

ووثبنـا علـى درجـات السـلم درجتيـن فـى الوثبـة .. حتى وصلنا إلى الباب ..

وهذه المرة غادرنا القبو وأوصدناه وراءنا ..

ثم وقفنا على الجانب الآخر نستجمع أنفاسنا ..

★ ★ ★

ـ « طاعون ؟ ما معنى هذا ؟ »

قلت لها وأنا أنفض ثيابى من براغيث وهمية ملأتها :

ـ « واضح أن هذه الأرض تعانى وباء الطاعون .. وهذا يعنى أن الإغراء شديد كى نضغط على مجموعة أخرى من الأزرار .. »

ـ « لحظـة .. كيـف تضمـن أننـا لم نلتقـط العـدوى بعد ؟ »

ـ « بـ .. بهذه السرعة ؟ »

ـ « طبعًا .. برغوث واحد يثب من ثيابها إلى ثيابنا .. وهذا معناه أن ننقل العدوى إلى كوكب آخر برىء ! »

كدت أصاب بجلطـة دماغيـة مـن الغيـظ .. وصحـت فيها :

ـ « يا سلام ! ونبقى هنا بانتظار مزيد من البراغيث ؟ فلننفض ثيابنا ونفرّ من هنا فرارنا من الأسد .. »

ـ « اصبر يا (سالم) .. لا بد من أن نفهم أولاً .. »

وللمرة الأولى رفعنا عيوننا نتأمل المكان الذى نحن فيه ..

★ ★ ★

كان البيت متواضعًا .. متواضعًا وضيقًا كجحر فأر ..

لكن أسلوب التأثيث .. والتقويم المعلق على الحائط .. وصورة مُطرب (الروك) الملصقة على الباب ..

كل هذا كان يشى بأننا لسنا فى بيت مصرى ولا عربى .. نحن فى بلد ما أجنبى ..

وبالتأكيد كانت المصادفة هى ما جعلنا نتجسد فى قبو مماثل للقبو الذى بدأنا رحلتنا منه .. ولكن أين نحن حقًا ؟

ـ « فريز ! دون موف ! »

واستدرنا فى ذعر نحو مصدر الصوت ..

كانت هناك فوهة بندقية عتيقة مصوبة إلينا ..

والبندقية تحملها عجوز شمطاء لم يبق جزء فى وجهها إلا وداست عليه دبابات الزمن .. وتأكّد ظنى أننا فى بلد ناطق بالإنجليزية .. (إنجلترا) أو (أمريكا) أو (أستراليا) أو .....

بدأ الجزء اللغوى فى عقلى يعمل .. وبدأت أسترجع اللغة الإنجليزية التى لم أستعملها منذ دراستى الجامعية .. حتى لكأنى أرى ترجمة (أنيس عبيد) على صدر العجوز التى توجه البندقية لنا عازمة على تفجير رأسينا ..

- « من أنتما ؟ »

- « نحن .. نحن صديقان .. لقد جئنا بطريق الخطأ .. »

ضيقت العجوز عينين لا تريان .. ودنت منا أكثر .. ثم غمغمت :

- « لا يبدو لى أنكما منهم .. ما هذه الملامح المتشابهة ؟ هل أنتما توءمان ؟ توءمان أجنبيان ! ماذا أتى بكما إلى (أمريكا) ؟ من أين ؟ »

كانت الإجابة هى - بالترتيب - نعم .. لا ندرى .. (مصر) ..

وعند هذا الجزء كانت قد دنت منا أكثر من اللازم .. وتخلت عن حذرها .. لهذا لم أر ما يؤذى فى أن أنتزع ماسورة البندقية من يدها بقوة ، وأضع ساقى فى طريقها فى أثناء اندفاعها .. لتسقط على الأرض ككومة العظام وقد فقدت سلاحها ..

هرعت (سلمى) لتعينها على النهوض .. وهى تعاتبنى :

ـ « حرام يا (سالم) ! ألا ترى أنها خائفة لا أكثر ؟ »

ـ « لو ضغطتْ على الزناد .. فلن يهمنى ما إذا كانت خائفة أم لا وهى تقتلنى .. إن الحالة النفسية لقاتلى لا تعزّينى كثيرًا كما تعلمين .. ثم من أدراك أن هذه المرأة غير مصابة بالطاعون ؟ »

لكنها ساعدت المرأة المرتجفة على النهوض .. فأجلستها على أريكة متداعية .. بينما اتجهت أنا لأعلق البندقية على مسمار صدئ يبرز من الحائط .. وعدت لأجلس شاعرًا بأن البراغيث تملأ ثيابى ..

متهاتفة تساءلت العجوز :

ـ « إذن لم تجيئا لقتلها ؟ »

ـ « قتل من ؟ »

ـ « (كـارول ـ آن) .. إن أوامـر (أوجـوتـاى) صارمة .. »

ـ « آه .. فهمت ! »

لقد اتضح كل شىء : إن (أوجوتاى) الصارم قد أمر بقتل (كارول ـ آن) .. هـذا سـهل .. ولكـن مـن (أوجوتاى) ؟ ولماذا يريد قتل (كارول ـ آن) ؟

ـ « هل (كارول ـ آن) هى الموجودة بالقبو ؟ »

ـ « نعم .. هى ابنتى الوحيدة .. »

ـ « وهل رآها الأطباء ؟ »

تقلّص وجـه العجـوز .. وجحظـت عيناهـا لتثـير الرعب فى نفسينا .. وقالت :

ـ « طبعًا لا .. لو أنهم عرفوا أنه الطاعون فلن .. »

ثم ازدادت حيرة .. وفى ذهول سألتنا :

ـ « ألا تعرفان كل هذا ؟ قانون (بيدرا) .. كل مرضى الطاعون يُحرقون أحياء مـع المـنزل الـذى وجدوا فيه .. »

قالت لها (سلمى) فى صبر بانجليزيتها العرجاء :

ـ « لنقل إننا سائحان حديثًا المجـىء هاهنـا .. هل لهذا تخبئينها فى القبو ؟ »

- « طبعًا .. فالنار هى العلاج الوحيد الذى يعرفه الأطباء للطاعون .. »

فكّرت (سلمى) قليلاً .. وراحت تبلل شفتها السفلى بطرف لسانها ثم سألت المرأة :

- « أين نحن بالضبط ؟ »

- « ومن أنتما بالضبط ؟ »

قالتها بسؤال مماثل وهى تنقل بيننا عينين جاهزتين للأسوأ ..

قلت لها وأنا أتحاشى عينيها :

- « هذه قصة طويلة ولن تصدقى منها حرفًا على أى حال .. فلنبدأ بالإجابة على سؤالنا نحن .. ما هو هذا المكان ؟ »

- « أنتما فى (نيويورك) .. »

تبادلت النظرات مع (سلمى) .. لقد ابتعدنا كثيرًا عن (مصر) إذن .. ولم نجرؤ على سؤالها عن أى زمن هذا حتى لا تظن المرأة بنا الظنون ..

لكن التقويم المعلق على الحائط كان يشير إلى ديسمبر ١٩٩٢ ..

هنا قالت (سلمى) وهى تتخلل بأناملها خصلات شعرها :

ـ « هل تتوقعين مقدم رجال هذا الـ .. الـ(أوجوتاى) هنا ؟ »
ـ « عرباتهم تذرع الحىّ منذ الصباح .. وأنا هنا جاهزة للأسوأ .. »
ولم أدرِكْ أنَّ المثل القائل (اللى يخاف من العفريت يطلع له) صادق ، إلا حين سمعت طرقات عنيفة على الباب .. طرقات بوليسية .. طرقات قوة غاشمة تعرف أن من حقها أن تتواجد حيثما تريد .. متى تريد ..
هبت المرأة واقفة .. ونظرت إلينا .. وصاحت :
ـ « إنهم قد جاءوا ! »
ـ « من هم ؟ »
ـ « الشرطة طبعًا .. كنت أعرف أن هذا سيحدث .. والآن ..... »
ـ « افتحى الباب ! »
دوّى الصوت خارج الباب بنبرة غليظة لا تدل على اللطف ..
ـ « هل تحملان بطاقات عبودية ؟ »
بطاقات عبودية ؟ يا له من اسم ! بالطبع لا نحمل ..

ولا نريد أن نتشرف بحمل بطاقات لها هذا الاسم الرهيب ..

الطرقات تزداد عنفًا .. واضح أنهم سيهشمون الباب سريعًا ..

هتفت المرأة وهى تتجه إلى البندقية المعلقة :

ـ « لو لم تكن معكما بطاقات ، فعليكما بالهرب .. إنهم يعدمون فى الحال كل من لا يملكها .. هاك ! النافذة الخلفية .. ستقودكما إلى الزقاق .. هيّا ! »

ـ « افتحى الباب ! »

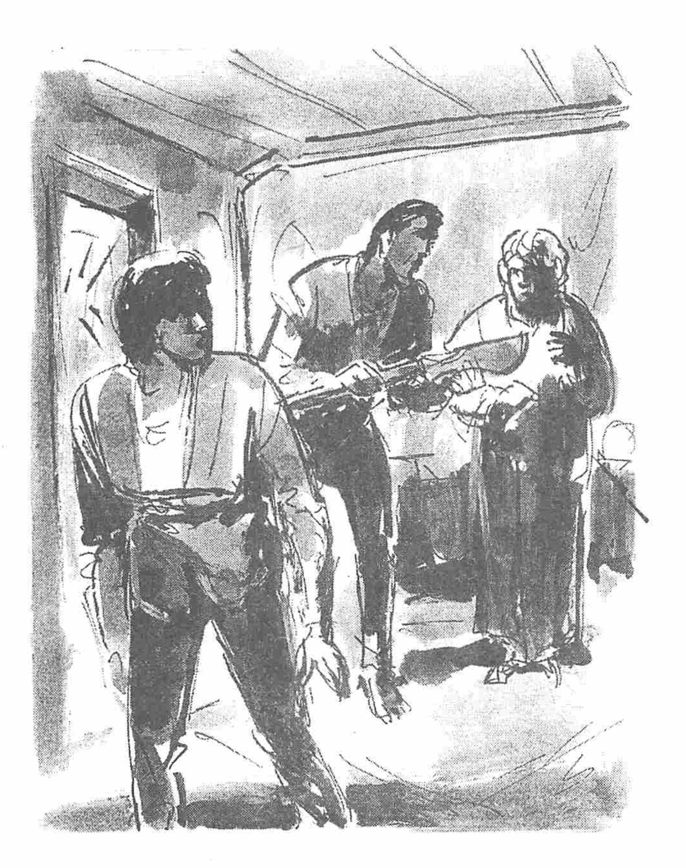
جذبت (سلمى) من معصمها نحو مخرج الهرب .. لكنى لم أنس أن أنتزع البندقية من يد العجوز .. وقلت لها فى رفق :

ـ « هذا سيجعل النتائج وخيمة بالنسبة لك ! »

باحتجاج هتفت ، وهى تتشبث بالماسورة :

ـ « وخيمة أو غير وخيمة .. لن أدعهم يحرقون ابنتى وأنا حية .. »

كان الوقت أضيق من أن يضيع فى الجدال .. (دبشك) البنادق ينهال على خشب الباب ، الذى يدهشنى أنه أمتن مما ظننت ..



لكنى لم أنس أن أنزع البندقية من يد العجوز . . .

قالت (سلمى) بالعربية :

- « دعها يا (سالم) .. إنها معركتها وعليها أن تخوضها .. »

أما نحن فلنهرب ..

وحين ساعدت (سلمى) على وضع قدميها على إطار النافذة ، سمعت خشب الباب يتهشم ..

لهذا وضعت قدمى بدورى ووثبت ..

كانت النافذة فى الطابق الأرضى ، لهذا سقطنا سقطة هينة وسط علب الطعام الفارغة وأكياس القمامة .. والقطط التى تبحث عن فئران لن تجدها ..

رائحة الزقاق عفنة جدًا .. والأرض مغطاة بطبقة من مياه المجارى ..

ومن داخل الدار سمعنا المرأة تصرخ :

- « لا .. لا أحد يقتلها .. لا أحد .. »

ثم طلقة رصاص واحدة خرقاء .. تلاها سيل من الطلقات، من بنادق آلية كأنه يحفر نفقًا فى أعصابنا .. وشممنا رائحة البارود الطازج ..

بعد ثوان شممنا رائحة الدخان .. ورائحة الخشب

المحترق .. لقد بدءوا حرق البيت بمن فيه كما قالت المرأة لنا منذ دقائق ..

شعرت بتقلص فى معدتى .. لكن هذا لم يمنعنى من أن أهمس لـ (سلمى) :

ـ « لقد رأينا ما يكفى .. والآن اختارى كوكبًا آخر أرجوك .. »



٢ ـ أرض المغـــول ..

خرجنا من الزقاق لنجتاز عدة شوارع متقاطعة بلا عابرى سبيل ..

وكان منظرنا لا يُوصف فى أرقى لغة إلا بأنه مثير للريب .. فتاة مبعثرة الشعر ، ورجل أنفه يدمى وحافى القدمين .. والأدهى أنهما متشابهان تمامًا ..

بالطبع لم تقبل (سلمى) أن تترك الكوكب لعدة أسباب :

١ ـ ربما كنا نحمل الطاعون معنا الآن .. وهذا يعنى تلويث عالم آخر برىء ..

٢ ـ أين روح المغامرة لدىّ ؟ لماذا لا ننتظر بعض الوقت لنعرف المزيد ؟ لو اتبعنا هذا الأسلوب فإننا سننهى كل احتمالات الجهاز (ناقل الجزيئات) ، دون أن نقضى فى أى كوكب أكثر من ربع ساعة ..

٣ ـ إن الهرب متاح دومًا حين تسوء الأمور أكثر من اللازم ..

٤ ـ لا معنى لدخول عالم آخر بذات المظهر المشوش .. على الأقل يجب أن نبدو فى مظهر أكثر احترامًا ..

كانت حججها مقنعة فيما عدا الحجة الأولى طبعًا .. وهكذا واصلنا رحلتنا دونما سبب سوى انتظار أن تسوء الأمور ..

★ ★ ★

كان الطقس باردًا .. باردًا إلى حدّ أن أفكارى تجمّدت قبل قدمىّ الحافيتين .. ولم تكن الثياب التى علينا مناسبة لهذا الصقيع ..

نبتاع ثيابًا أثقل ؟ لا يمكن .. لأننا لا نحمل دولارات ولا نحمل مالاً فى الأساس .. يبدو أنها ورطة لا خلاص منها ..

وعند الناصية سمعنا من يأمرنا بالتوقف ..

لهجة انجليزية رديئة لكنها كافية لتفزعنا ..

واستدرنا ببطء لنرى رجلاً قصير القامة يرتدى ثيابًا حمراء .. واضح أنه زىّ رسمى ما .. وعلى رأسه خوذة سوداء .. وفى يده بندقية آلية من النوع الذى يُحمل بيد واحدة كالمسدس .

أما عن ملامح وجهه فتستأهل وقفة .. إن عينيه ضيقتان مشقوقتان شقًا جانبيًا .. ووجهه مزاج من الصفرة والسمرة .. وشاربه طويل مفتول ينساب على جانبى فمه .. والوجه ـ ككل ـ يعكس شراسة لا تسرّ النفوس ..

الحق أنه يبدو كالمغول لو أن المغول لديهم رجال شرطة ..

ورأيناه يشير لنا كى ندنو منه ..

دنونا ونحن نجرّ قدمينا .. بينما هو يرمقنا بثبات من عينيه الناريتين ..

ـ « بطاقات العبودية .. بسرعة ! »

★ ★ ★

إنهم يعدمون فى الحال كل من لا يملكها .. هاك ! النافذة الخلفية ..

★ ★ ★

مددت يدى إلى جيبى بحثًا عن بطاقتى الشخصية لعلها تصلح هنا .. وهنا توتر الرجل وبلهجة منذرة هتف :

ـ « ببطء ! »

أخيرًا تنهّدت معلنًا عن استسلامى .. ورسمت ابتسامة رياضية مرحة على وجهى وقلت (إننى أعرف كيف أجتاز هذه المشاكل بدبلوماسية) :

ـ « الواقع أننا نسيناها فى البيت يا زميل .. ولكن .. لو أنك سمحت لنا أن .. »

ـ « قفا أمام الجدار ! »

ـ « إن السفارة المصرية قد تفسر الأمر لو .... »

ـ « أمام الجدار ! »

وتراجعنا ببطء .. ولحسن الحظ لم يخطر ببالنا أن الرجل سيقوم بإعدامنا .. فالأمور لا تجرى بهذه البساطة أبدًا .. لهذا تراجعنا كما طلب .. وألصقنا ظهرينا بالحائط .. لكنى لم أحبّ كثيرًا الطريقة التى عالج بها شيئًا فى مؤخرة بندقيته ثم رفعها نحونا ..

ـ « (سالم) .. ماذا سيفعل بالضبط ؟ »

ـ « لا تقلقى .. إنه سيقتادنا إلى المخفر طبعًا .. »

وبوجه صلب كالرخام هتف الشرطى :

ـ « بناء على تعليمات (أوجوتاى ـ خان) وقانون (بيدرا) رقم ١٧ ـ هـ ؛ سيتم إعدامكما فى الحال استنادًا للتفويض الممنوح لى ! »

ـ « إنه يمزح .. لا تظهرى ذعرًا حتى لا تنعشى قلبه ! »

ـ « أنا غير مذعورة .. فما زلت لا أفهم .. »

بوم !

طلقة واحدة مختصرة جدًّا .. كل هذا المدفع من أجل طلقة تافهة كهذه ؟ لكننا رأينا الشرطى يترنح ثم يسقط على وجهه .. وبين لوحى كتفه رأينا ثقبًا أحمر ينزّ دمًا ..

وعرفنا أن أحدهم أطلق عليه الرصاص من الخلف ..

كانا رجلين .. برزا لنا من وراء صندوق قمامة كبير .. أحدهما أبيض أشقر الشعر قد عقص شعره على هيئة ذيل حصان .. أما الآخر فزنجى قد ضفّر خصلات شعره المجعّد فى ملايين الضفائر الصغيرة ، كما يفعل فى عالمى المطرب (بول مارلى) ، أو الحسناء (بود يريك) .. هل تفهم ما أعينه ؟

وكانا يرتديان سويترين جلديين فوق كنزات ثقيلة .. وفى يدى كل منهما قفازان .. هذا هو ما استطعت رؤيته فى الثانية الأولى ..

فى الثانية الثانية رأيتهما يهرعان إلى جثة الشرطى .. وبحركات منظمة لا تردّد فيها ولا ارتجال ،

رأيت الأشقر ينزع عن الرجل ثيابه .. والزنجى ينزع البندقية وهو يتلفت حوله فى حذر .. ثم .....

- « هلم يا رجل ! هناك من سمع هذه الطلقة حتمًا ! »

وهرعنا كالأرانب المذعورة إلى زقاق .. فزقاق أضيق .. ثم إن الزنجى تلفت حوله فى حذر .. وركع على ركبته ليرفع الغطاء عن فتحة مجرور .. ودعانا كى نهبط فيه بسرعة .. لكننى بلا حذاء !

هبط الأشقر أولاً وعلى كتفه ثياب الشرطى .. ثم (سلمى) .. فأنا .. فالزنجى الذى تأكّد من غلق الفتحة ..

ونزلنا بعض درجات محفورة فى الجدار .. ثم تقدمنا - ومياه المجارى تصل لسيقاننا - فى ممرات مظلمة ، لا نتبين طريقنا إلا فى ضوء مشعل صغير يحمله الزنجى .. ولم تكن هناك فئران لحسن الحظ .. كالعادة ..

وأخيرًا كان هناك شىء صخرى مرتفع يشبه المنصة إلى حدّ ما ، أمكننا أن نتسلقه كى نجلس فوقه ، بعيدين عن المياه المتعفنة من تحتنا ..

أخرج الأشقر شمعة من ثيابه .. وأشعل فتيلها .. ثم ثبتها فى الصخر بقطرات ذائبة منها .. وعندها فقط عدنا إلى التنفس ..

والغيظ يلتمع فى عينيه الصفراوين هتف الزنجى بلهجة فظة :

- « أنتما أغبى حمارين يمكن العثور عليهما ! لا أدرى كيف يعيش الحمقى إلى هذه السنّ برغم كون الاحتمالات كلها ضدهم .. »

صعد الدم بدوره إلى رأسى .. وقلت :

- « سيدى .. إذا كنت قد أنقذتنا فأنا لك شاكر .. لكن هذا لا يعنى أن تهيننا دون سبب .. وإلا يمكنك إعادتنا إلى الزقاق وإعادة الشرطى إلى الحياة .. وانس الموضوع تمامًا .. »

قال الأشقر باسمًا وهو يحاول تخفيف الجوّ :

- « لا عليكما .. إن (تومى) لا يجيد انتقاء عباراته .. لكنه طيب القلب كجدّة عجوز .. أنتما من (الخاسرين) .. أليس كذلك ؟ »

تبادلت و (سلمى) نظرة .. هل من الحمق أن أنكر أننى من (الخاسرين) وأخبرهما بالحقيقة ؟

لا حيلة أمامى .. من يدرى ؟ لربما طالبانى بإبراز بطاقة الخاسرين ليتأكدوا من شخصيتى ..

- « نعم .. لسنا منهم .. نحن مصريان .. و.... »

- « مصريان ؟ »

قالها الزنجى فى ذهول .. ثم واصل ثورته ..

- « مصريان .. وتمشيان فى (سنترال بارك) ليلاً ؟ إن المغول لا يطيقون العرب ، ويقتلونهم قبل أن يتمكن أحدهم من لفظ (الراء) فى كلمة (عربى) .. ألم أقل لكما إنكما أحمقان ؟ »

ابتلعت ريقى وكتمت عنهما أفكارى .. طاعون ومغول و (خاسرون) .. ما هذا العالم بالضبط ؟

- « وكيف وصلتما إلى (نيويورك) ؟ »

هنا وفّر علينا الأشقر عناء البحث عن إجابة .. وقال :

- « بالطبع جاءا مع (أبو فراس) .. إن الجرثومة لا تستطيع العبور من الحدود كما تعلم .. من حسن حظكما أننا كنا هناك بالمصادفة ، ورأينا المغولى على وشك إعدامكما .. يجب ألا تظهرا فى الطرقات قبل أن نستخرج لكما بطاقات عبودية مزوّرة .. أى تصرف غير هذا هو انتحار .. »

قالت (سلمى) وهى تنتقى كلماتها بعسر :

- « لقد قتلوا عجوزًا وابنتها .. لأن الأخيرة مصابة بالطاعون .. »

قال الزنجى فى تهكم :

- « مرحبًا بكما فى (نيويورك) .. هذا المشهد يتكرّر عشرين أو ثلاثين مرة كل يوم .. وهى طريقة فعالة حقًا لأن الوباء بدأ ينحسر .. »

- « ألا يوجد نوع من الأمصال أو المضادات الحيوية أو .... ؟ »

- « هذه الأشياء للأولاد الأثرياء فقط .. إن موت خمسين أو ستين ألفًا من الرعاع لن يضايق المغول فى شىء .. وهكذا يجدون للطاعون فائدة مزدوجة : القضاء على الفئران .. القضاء على الرعاع الذين تشبه حياتهم الفئران .. »

- « وأنتم ؟ كيف تحمون أنفسكم ؟ »

- « إن « أبو فراس » قد استطاع تهريب مائة جرعة من مصل (هافكين) .. وقد أجريت قرعة لمعرفة من سينجون منا .. أما الباقون فهم يكتفون بمقاومة البراغيث وتنظيف ثيابهم جيدًا .. »

ـ « إن (أبو فراس) وكل رجال منظمة (فتح) .. يمكن الاعتماد عليهم .. »

تبادلت و (سلمى) نظرة عابرة .. هو ذا الخلط المألوف بين العوالم يحدث ثانية .. ففى هذا العالم تكافح منظمة (فتح) والأمريكيون من أجل القضاء على المغول .. من الواضح أن هذين الرجلين يمثلان نوعًا من الثوار .. من المتمردين على سلطة قاهرة شمولية يمثلها المغول ..

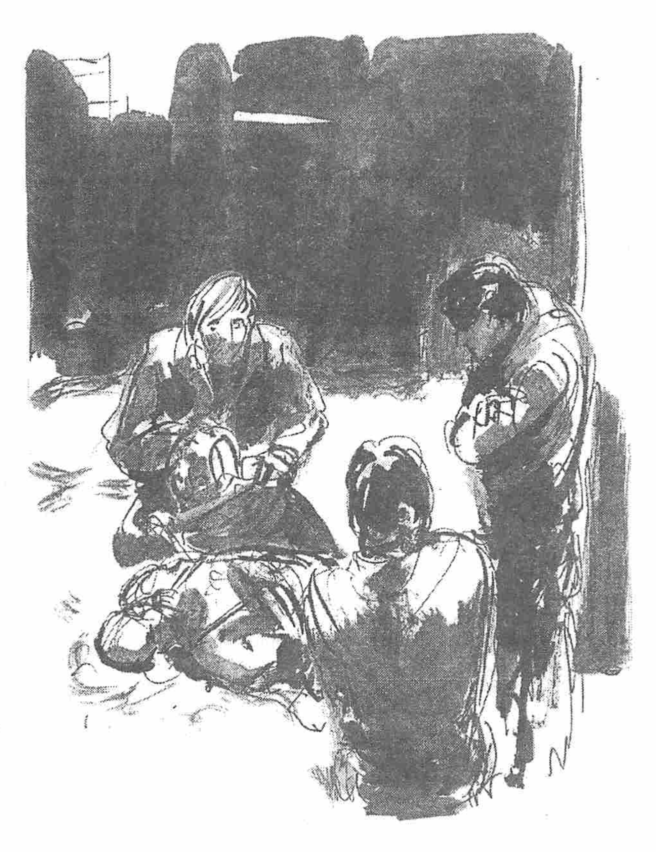
بالنسبة لـ (سلمى) كذلك بدا الأمر غريبًا وإن كان لأسباب مختلفة .. ففى عالمها لا توجد قوة قاهرة سوى العرب أو ما تسميه (أ. ع. م) ..

قال الأشقر وهو يجمع ثياب الشرطى ويدسها فى كيس :

ــ « والآن نأخذكما إلى مقر الخاسرين .. هناك أشياء كثيرة يجب ترتيبها قبل أن تجازفا بالظهور فى الشوارع .. »

ودعانا إلى أن نتبعه ..

* * *



قال الأشقر وهو يجمع ثياب الشرطى ويدسها فى كيس !
ـ « والآن نأخذكما إلى مقر الخاسرين . .

٣ ـ أسـئلة .. أسـئلة ..

لن أحكـى هنا عن شبكة الممرات شديدة التعقيد التى رحنا نمشى خلالها وسط المجارى .. إن هؤلاء القوم يحفظون المجارى كما تحفظ أنت خطوط كفك .. ومن الواضح أنهم لا يغادرونها إلا لمامًا .. ليقتلوا شرطيًّا أو يفجروا عربة شرطة .. أو يكتبوا بعض عبارات السباب ضد المغول على جدار ، مستعملين علبة (سبراى) وقطعة من خشب (الأركت) المفرغة .. ثم يعودون إلى المجارى من جديد ..

أما عن مقرهم الرئيسى فى (نيويورك) فيقع تحت (سنترال بارك) .. ويشبه كهفًا عملاقًا دعمت جدرانه بألواح الخشب .. وتتدلى المصابيح الواهنة من سطحه ..

ويوجد عدد هائل من حقائب النوم على الأرض .. يتناثر عليها رجال منهكون ، منهم من ينظف سلاحه ، أو يقوم بربط الأسلاك فى عبوة ناسفة ، أو يكتفى

بعضهم بالنوم .. وثمة مدفأة كهربية تحاول جاهدة أن تجعل المكان رحبًا ..

وكانت هناك أربع أو خمس فتيات لا بأس بجمالهن ، لكن وجوههن اكتست بطبقة مريعة من الصرامة والجدية .. ربما التوحش .. وهن يعملن كما يعمل الرجال ويتحملن ما يتحملون .. ويبصقن كما يبصقون ..

بالإضافة لهذا توجد بعض المنشورات ملصقة على الجدار ، وورشة خراطة لتصنيع أسلحة بدائية ، وبعض صناديق الديناميت التى لم تُبذل أية محاولة لتفادى شرّها كأنها تحوى بعض البسكويت ..

قال الأشقر الذى عرفنا أن اسمه (كالاهان) ، بعد ما التقط لنا صورة :

- « سيتم إعداد بطاقتى عبودية لكما .. لكن هذا يحتاج إلى بعض الوقت .. »

ومن فراشه الأرضى نهض عملاق زنجى أصلع .. كأنه ديناصور يفيق من سبات طويل .. كان عارى الجذع يكشف عن أضخم مجموعة من العضلات اللامعة بالعرق رأيتها فى حياتى ..

تقدَّم نحونا وهو يزمجر من منخريه الواسعين ، حتى ظننت أن هذا مشهد من فيلم (كينج كونج) .. ثم قال بصوت لا يقل رقة عن مظهره :

ـ « من هذان يا (كالاهان) ؟ »

ـ « إنهما مصريان يا (ماك ـ جورج) .. »

ـ « ومن قال إنهما ليسا جاسوسين لِعينيْن ؟ »

ـ « إن شرطيًّا مغوليًّا كان على وشك إعدامهما منذ ساعتين .. »

تأملنا فى شك بعض الوقت ، حتى كدت أصرخ وأعترف .. أعترف بأى شىء ؟! لست واثقًا فى الحقيقة ..

ثم إنه غمغم من بين أسنانه :

ـ « حسن .. لكن كن حذرًا .. ولو رأيت ما يريب قُل لى فحسب ! »

وعاد يكوّم جسده الضخم على الحشية ..

عاد (كالاهان) يطلب منا أن نستريح بعض الوقت ، إلى أن يفرغوا من تزوير البطاقتين لنا .. وجلب لنا بعض الشطائر ، وعلب مياه غازية اسمها (منغوليا) وطعمها ليس أفضل من اسمها !

- « الآن حان الوقت .. »

قلتها لـ (سلمى) همسًا ، وكانت تفهم تمامًا ما أريد قوله .. حان الوقت للهرب من هذا العالم .. فقد رأينا ما يكفى .. إن بدء المغامرة فى عالم يصطرع فيه المغول مع الثوار ، ويُقتل العرب قبل لفظ حرف (الراء) ؛ لهو دليل كاف على نهايتها .. وكانت موافقة تمامًا هذه المرة ..

جلست على حشية ، وأخرجت (ناقل الجزيئات) .. بينما أمسكتُ يدها اليسرى فى حرص .. لا أريد أن أتركها ترحل لأعيش أنا هاهنا مدى الحياة ..

ها هى ذى تضغط عشوائيًّا .. (٢٠٠ ـ د ـ ....) ..

فى اللحظة التالية وجدت نفسى فى ركن القاعة ، وثلاث فوهات مدافع مدفونة فيٍ عنقى .. و(سلمى) تقف فى الركن الآخر تقول شيئًا ما .. بينما العملاق الزنجى يتفحص الجهاز فى ريبة ..

- « قلت لكم إنهما جاسوسان .. لكنكم تظاهرتم بالعبقرية .. »

قالت فتاة شقراء ، صوتها كصوت رجل مصاب بسرطان الحنجرة :

ـ « ربما هما انتحاريان .. يحاولان تفجير شحنة من الديناميت .. »

ـ « أو هو جهاز إرسال يبلغ مكاننا للشرطة .. »

مرة أخرى يتكرّر هذا الموقف السخيف ..

قلت محاولاً أن أجد مسافة تتحرّك فيها حنجرتى :

ـ « لا هذا ولا ذاك .. هذه آلة حاسبة لا أكثر ولا أقل .. »

تفحصها العملاق بضع دقائق .. وداعب بعض الأزرار فيها ليتأمل الحروف على شاشتها ..

★ ★ ★

من القائل : لو أنك أعطيت قردًا آلة كاتبة ، وتركته يعبث مليون سنة .. لربما وجدت أنه قد كتب قصيدة لـ (شكسبير) ؟

★ ★ ★

لحسن الحظ لم يحدث هذا .. لم يكن قردًا ولم يُمنح مليون سنة يجرب فيها .. فقط جرّب الأزرار مرتين .. ثم هزّ رأسه :

ـ « إنها أقرب إلى مفكرة إلكترونية .. على كل حال سأبقيها معى ! »

هتفت الفتاة وهى تسلّك أسنانها بطرف خنجر ..
ـ « وماذا لو كانت جهازًا لاقتفاء الأثر ؟ »
ـ « لا يوجد جهاز اقتفاء أثر مزوّد بمفاتيح رقمية .. وكذلك القنابل .. »

ثم دسّ الجهاز فى حزامه .. وعاد يرمقنا فى شك .. فحولنا عينينا عنه ..

نحن محبوسان هنا إلى أن يقرّر إعطاءنا الجهاز ، أو أتحوّل أنا إلى (أرنولد شوارزنجر) أو ـ على الأقل ـ (الشحات مبروك) .. كى أثب لأوجه له لكمتين يفقد وعيه بعدهما .. وانتزع الجهاز من حزامه .

بدأ الجمع يتفرّق .. وبدا أنهم نسوا أمرنا مؤقتًا ..

فعدت و (سلمى) إلى افتراش الحشيّة ، وفى رأسينا من الخواطر السوداء ما لا داعى لذكره ..

ـ « لم يكن هذا خطئى .. »

قالتها ردًّا على اللوم الذى وجهته لها فى سرّى ..

كانت هناك بعض الكتب متراصة على رفّ من المعدن الذى لا يصدأ .. وكانت على بعد ذراعين منى ، فمددت يدى ومررت إصبعى على الهوامش :

دائرة المعارف البريطانية ـ تاريخ العالم ـ أساليب حرب العصابات ..

انتزعت كتاب (تاريخ العالم) من موضعه ، ورحت أقلّب فى صفحاته النظيفة ناصعة البياض (فلا أحدًا يقرأ هنا على الأرجح) ..

★ ★ ★

(سيف الدين قطز) .. (الظاهر بيبرس) .. موقعة (عين جالوت) ..

لا شىء .. هووور ! هذا غريب ..

★ ★ ★

تدنى (سلمى) رأسها الصغير من رأسى ، وتصغى لترجمتى لما هو مدوّن بالإنجليزية فى مجلد (تاريخ العالم) :

الأبطال

فى عام واحد بتقويمنا العظيم ، وعام ١١٦٢ ميلادية بتقويم النصارى ، ولد مرشدنا وقائدنا العظيم (تيموجين خان) الذى سمى بعد ذلك باسم (جنكيزخان) أى سيد الحكام(★) ..

(★) كل المعلومات التالية حقيقية .

كان الخان العظيم يؤمن بالدم ، ويؤمن بأن رجولة الرجال لا تنضج إلا على وهج النيران ونصال السيوف ..

وفى الثالثة عشرة من عمره استطاع أن يقود جيوشنا ، ويوحّد قبائلنا التى أنهكتها الصراعات والحروب الأهلية ..

انظر أيها العالم ! انظرى أيتها الشعوب السقيمة .. أيها اليهود والنصارى والمسلمون .. هى ذى قوات الخان التى لا تهاب الموت ، سنابك خيولها تنهب الوديان والفلوات .. وصرخات محاربيها الأشدّاء تصمّ آذان الشعوب التى أوهنها السلام ..

ها نحن أولاء نتجه إلى (الصين) .. لقد سمّانا الصينيون باسم (شعب الخنازير) .. وبنوا لنا سور الصين العظيم حاسبين أنهم بهذا يردون أمواج غزواتنا ..

لكن الخان العظيم استطاع أن يقتحم السور ، ويحتل (الصين) ، وينال بلاد (الترك) بكل بكواتها وسلاطينها المتخمين .. وينال (روسيا) ..

وتوفى الخان فى عام ٦٥ من تاريخنا و ١٢٢٧ بتقويم النصارى .. وتلاه ابنه (أوجوتاى خان) الذى

واصل فتوح أبيه العظمى ، بجنده الذين يقاتلون كالأبالسة ، ويلتهمون اللحم النيىء ، ولا يستحمون أبدًا لأنهم طاهرون ..

ثم جاء (باتوخان) ليواصل الفتوح .. ودانت لنا (بولندا) و(ألمانيا) ..

ثم انطلق (هولاكو) العظيم ليظفر ببلاد العرب كلها .. ويحتل (أوروبا) التى لم تر الهول منذ عهد (أتيلا) ملك الهون(★) ..

فى القرون التالية ، استطاع جندنا العظام أن يفتحوا أكثر (إفريقيا) و(آسيا) .. وتمكن فاتحنا العظيم (أميرجى خان) من عبور الأطلنطى فوجد هناك شعبًا من الهنود الحُمر .. واستطاع أن يحتلّ بلادهم ، ويرسل لها جيشًا من المغول وألوفًا من عبيدنا البيض الأوروبيين .. وصار اسمها (أمريكا) تيمنًا بحروف اسمه ..

لقد تفرغ رجالنا العظام للحرب .. بينما تفرغ عبيدنا الصفر والحمر والسود والبيض للزراعة والاختراع من أجل منفعة أمة المغول العظيمة ..

(★) كل المعلومات التالية غير حقيقية .

وكذا تمكن عبد إيطالى من اختراع اللاسلكى .. وعبد أمريكى من اختراع الكهرباء .. وعبد ألمانى من اكتشاف القنبلة الذرية .. وعبد فرنسى من اختراع آلة العرض السينمائية التى ترى الناس أمجادنا .. وغزا العبيد الروس الفضاء ، لكننا ظللنا هاهنا ننتظر حتى يلقوا هناك شعوبًا تستحق أن نغزوها ونعمل فيها الذبح والتقتيل ..

المجد للمغول ! فهم الأقوى والأشجع والأذكى ..

ومنذ عهود فرساننا العظام الذين تركوا الشمس وراء ظهورهم ، وراحوا بجيادهم ينهبون الأرض نهبًا ، تاركين وراءهم خطًا من الدخان الأسود واللهب ..

حتى فرساننا العظام الذين ألقوا قنابلهم النووية فوق (موسكو) من طائراتهم الـ(خان ـ ١٩) .. نجد أن روح المغول لم تتغيّر .. وما زالوا بنفوس متوثبة يقاتلون فى كل مكان .. ويشربون لبن الفرس المختمر فى جماجم أعدائهم بعد كل نصر ..

فإن لم يجدوا حروبًا على الأرض ، أرسلوا المكوكات الفضائية تبحث فى الفضاء البعيد عن دماء يسفكونها ..

المجد للمغول ! والويل كل الويل لمن يجرؤ على مقاومة إرادتهم السامية ، التى هى إرادة الكون ذاته ..

★ ★ ★

أنهيت قراءة هذا الجزء من الكتاب .. ووجدت أنه يحوى - عدا ذلك - آلاف الأسماء للحروب التى تنتهى كلها بـ (حرق القرى وذبح الرجال ودفن الأطفال وبقر بطون الحوامل) .. تاريخ طويل يبدأ من القرن الثانى عشر وحتى القرن العشرين .. وآلاف (الخانات) العظام الذين لا يكفون عن حرق أعدائهم أحياء ..

والمثير هنا أن الكتاب كان دراسيًّا .. وكان موجهًا لتلاميذ الصف الرابع الأوّلى .. أتمنى أن أرى وجه الصبى الذى سيفرغ من قراءة كتاب كهذا .. لا بد أنه سيقضى بقية حياته فى مستشفى الأمراض العقلية ، مصابًا بالعته الذهولى ..

تبادلت و (سلمى) نظرة واضحة المعنى ..

لقد اخترنا أسوأ عالم ممكن .. كما هو ظاهر لكل ذى عينين ..

★ ★ ★

سألتنى همسًا :

- « ماذا تستنتج من كل هذا ؟ »

قلت لها وأنا أتأكد من أن أحدًا لا يراقبنا :

ـ « الأمر واضح .. هذا العالم يحكمه المغول بألعن حكم عسكرى ممكن .. ومن الواضح ـ كذلك ـ أن الثورات لم تنجح ضدهم .. بدليل أنهم يتمتعون بسيطرة كاملة بعد ثمانية قرون .. »

ـ « لكن كل أقطار العالم تحتفظ بأسمائها التى نعرفها .. »

ـ « حقًا .. لكنها ليست بلدانًا مستقلة .. إنها أقرب إلى الولايات أو المحافظات التى يسيطر عليها حاكم واحد .. لست واثقًا مما إذا كان (أوجوتاى) هذا حاكم (العالم) أم حاكم (الولايات المتحدة) .. لكنه مرعب بما يكفى على كل حال .. »

عادت تسألنى كأننى حكيم الأزمان :

ـ « وما سرّ الاختلاف الذى جعلهم يسيطرون على الأرض ؟ »

ابتسمتُ .. فلم أتصوّر أنها لم تلحظ ..

ـ « لأنه لا يوجد (قطز) فى هذا العالم .. ألم تفهمنى بعد ؟ »



٤ ـ فلنذب وسط الزحام ..

ـ « لا أفهم .. »

قلت لها فى صبر :

ـ « الأمر واضح .. لقد كان (سيف الدين قطز) ثالث ملوك دولة المماليك البحرية .. »

ـ « بحرية ؟ »

ـ « يسمونها هكذا .. ولا أعرف السبب(*) .. وحين هاجم التتار بقيادة (كتبغا) غزة ، تعاون مع مملوكى آخرهو (بيبرس البند قدارى) لمحاربتهم .. لقد تمكن (قطز) من مطارة التتار حتى نهر العاصى .. ثم تمت الموقعة الشهيرة المسماة (عين جالوت) ما بين (بيسان) و(نابلس) .. حين صاح صيحته الشهيرة (واإسلاماه !) .. وانتصر على جحافهلم المروعة .. لقد خلّد (على أحمد باكثير) هذه المعركة فى روايته (واإسلاماه) .. هل عندكم مثله ؟ »

(*) يقال إن السبب هو أنهم استقروا فى جزيرة (الروضة) وسط النيل .

ـ « لا .. فشأن التتار لم يكن ذا بال فى عالمى .. »
ـ حسن .. يرى كثيرون من المؤرخين أن (عين جالوت) هى نقطة التحول فى تاريخ التتار .. ودون غرور أو مبالغة يمكن القول إن (قطز) قد استطاع أن ينقذ العالم إلى حدّ ما .. »
قطبت وجهها غير مصدقة .. وغمغمت :
ـ « إلى هذه الدرجة ؟! »
ـ « كما أن معركة (واترلو) قد أنهت أمجاد وحش يُدعى (بونابرت) ، و(ستالينجراد) قد حطمت أحلام مخبول يُدعى (هتلر) .. ولو لم تكن (ستالينجراد) لكان النازيون يحكمون عالمى الآن .. »
هنا ـ وكان الحديث قد استغرقنا ـ دنا منا الفتى الأشقر ذو الضفيرة ، الذى عرفنا أن اسمه (كالاهان) ، فجلس القرفصاء جوارنا .. وابتسم .. ثم ناولنا بطاقتين مغلفتين رهيبتى الشكل .. وقال :
ـ « مرحبًا بكما فى (نيويورك) .. »
أمسكت البطاقة الأولى .. وكانت عليها صورتى أبتسم ببلاهة .. والبيانات تقول إننى (لوتشيو أماريللو) ... عامل بناء .. مكسيكى ..

أما بطاقة (سلمى) فتقول إنها (ماريا أماريللو) .. خادمة .. مكسيكية ..

أولاً : لم اخترت لنا الجنسية المكسيكية ؟

ـ « لأنها تسمح بأن تكون أسمر البشرة ذا ملامح عربية .. لقد رأيت فرنسيين يبدون كاليابانيين .. وأمريكيين يبدون كالأفارقة .. فلن يجد المغول شيئًا مريبًا فى ملامح وجهيكما .. »

ثانيًا : لماذا اخترت لنا مهنًا يدوية بائسة ؟ لم لا أكون طبيبًا وهى رسّامة ؟

ـ « لأن هذا هو نوع المهن التى يمكن لمهاجر مكسيكى أن يجيدها .. كنت سأختار لك مهنة عامل مجارى .. ولها مهنة راقصة .. لكنكما لا تبدوان لى من أهل ذلك ! »

وأضاف فى تفلسف :

ـ « وعلى كل حال .. لا توجد مهنة يدوية بائسة .. أنت تعمل إذن أنت محترم .. »

ثالثًا : ما سر تشابه اسمينا ؟ هل تعنى أننا زوج وزوجة ؟

ـ لا .. إن تشابه وجهيكما مريب .. لذا أوثر أن تكونا توءمين غير متماثلين .. فالأزواج قلما يتشابهون

على هذا النحو إلا بعد ثلاثين عامًا من الحياة الهانئة ..
ولا توجد حياة هانئة فى هذه الأرض .. »

لقد أقنعتنا يا أخ (كالاهان) ..

بعد هذا مدّ يده لنا بحفنة من الدولارات غريبة المظهر .. كلها تحمل وجه (جنكيزخان) بدلاً من (جورج واشنجتون) .. مع شعار (دماء .. دماء) بدلاً من شعار (بالله نؤمن) الشهير ..

ـ « دولارات مغولية .. مزورة بالطبع .. لكن اكتشافها شبه مستحيل .. »

وناولنا كيسين يحوى كل منهما مجموعة من الثياب .. وحذاءين لحسن الحظ وطلب منا أن ننتحى جانبًا لنرتديها ..

سألته وأنا أحمل ثيابى وأنهض :

ـ « لكننا لا نعرف حرفًا من الأسبانية .. »

ـ « كذلك المغول .. فلو ضبطك أحدهم اكتف بترديد أية كلمات تنتهى بحرف (الواو) أو (الياء) .. ولا تنس أن تضع يديك على صدرك وتلوح بهما طيلة الوقت ..
ومن آن لآخر قُل (سنيورى) .. فهذا كاف .. »

ثم هتف بلغة أسبانية مزيفة يمكنها خداع الحمقى جميعًا :



بعد هذا مدّ يده لنا بحفنة من الدولارات غريبة المظهر ..
كلها تحمل وجه (چنكيز خان) ..

ـ « سنيورى داسفيدا ماتريو سوكيرى ماريا ! »
ـ « ما معنى هذا ؟ »
ـ « لا معنى له .. لكنه جيد كما ترى .. »
ـ « وما هو برنامج حياتنا بعد ترك هذا المكان ؟ »
ابتسم .. وقال وهو يبصق ويدارى البصقة بحذائه :
ـ « لا شىء .. عليكما البقاء حيين أطول وقت ممكن ! »

★ ★ ★

بطاقة عبودية

اسم العبد : لوتشيو أماريللو كاريداس .
السّن : ٣٠ سنة .
المهنة : عامل بناء .
الولاية : المكسيك .
تاريخ القدوم إلى نيويورك : بيلاس ـ ٨٢٦ (أكتوبر ١٩٩٣م)
عيوب : إسهال ـ غازات بطن .. قدم مسطحة .
شخصيته : خنوع ـ جبان ـ متردد ـ أحمق ـ إمّعه .
صحت فى احتجاج بعد ما قرأت بطاقتى بعناية :
ـ « كل هذه السلبيات ؟ ولماذا لم تضفها فى خانة العيوب ؟ »

قالٍ (كالاهان) وهو يرتّب سترتى كى تبدو أكثر إهمالاً :

- « بل هى مزاياك .. الخنوع الجبان الأحمق هو العبد المفضل عند المغول .. أما عن عيوبك فهم لا يريدون سوى الجسدية منها .. وعلى كل حال بطاقة عبوديتى أنا تقول إننى : خنزير - دنىء - نذل - معتوه .. »

صافحته فى حرارة .. وحييت الباقين .. وإن لم أستطع كثيرًا أن أحبّ (ماك - جورج) الذى يضع فى جيبه أثمن ما أملك ..

- « شكرًا يا (كالاهان) .. فلولاك .... »

- « لا عليك .. إنها تعليمات (أبو فراس) الصارمة .. علينا العناية بالعرب بالذات ، وتوفير سبل الراحة والتنكر لهم .. »

ورحنا نعبر شبكة المجارى المعقدة ..

همست (سلمى) فى أذنى :

- « والجهاز ؟ »

- « وماذا عن جهازنا يا (كالاهان) ؟ »

قال وهو يتحسس مواضع خطواته ، مستعينًا بمشعل صغير :

- « سيبقى مع (ماك - جورج) لفترة حتى يعرف كنهه .. وعلى كل حال لا تقلقا .. فهو فى أمان ... »

ثم توقف وأشار بالمشعل إلى أعلى .. كان النور يدخل من طاقة معدنية فى سقف المكان ..

- « ستصعدان من هنا إلى شارع جانبى .. تأكدا من غلق الفتحة ثم عيشا حياتيكما .. يوجد فندق رخيص على بعد خطوات .. كما أن هناك مكتب توظيف على الناصية .. والآن وداعًا .. »

وراح ينتظرنا حتى تسلقنا الدرجات المعدنية ، التى توصلنا إلى غطاء المجرور .. أزحتها بيدى .. ورفعت جسدى حتى خرجت من الفتحة ، ثم مددت يدى أعين (سلمى) على الخروج ، وسرعان ما ابتلعتنا المدينة المنهكة العجوز ...

★ ★ ★

كان الجليد ينهمر فى رقة .. وبدأ الشارع يتخذ لونًا أبيض حزينًا كأحلام ملاك ، وقد بدأت أشجار عيد الميلاد تتناثر فى الطرقات .. وأمام أبواب المحلات .. وبعض دُمى حزينة لـ (سانتاكلوز) - بابا (نويل) كما نسميه - تقف على استحياء وراء واجهات المتاجر ..

ومرّت جوارنا عربة تشبه عربات المطافئ بسرعة جنونية ..

على ظهرها وقف رجال ذوو ملامح مغولية ، يرتدون معاطف جلدية حمراء ، وقد ثبت كل منهم خزّانًا على ظهره .. خزانًا يشبه قاذفات اللهب التى نراها فى السينما ..

كانت ملامحهم صارمة تشى بالشرّ .. لابل تشى بما هو أقسى وأبرد من الشرّ .. وعرفت أن هذه فرقة إبادة مرضى الطاعون ، ذاهبة لحرق بيت آخر فى الناحية .. أتمنى لهم التوفيق !

فما إن ابتعدت السيارة حتى همست (سلمى) وهى تتأبط ذراعى ، ويدها ترتجف فى عصبية حول ساعدى :

- لقد صرت أكثر اقتناعًا بمغادرة هذا العالم .. نحن لن نترك جهازنا مع هؤلاء المتمردين لمجرد أنهم أقوى وأكثر عددًا .. كان يجب أن تصرّ على استرداد الجهاز .. »

- الإصرار كان سيجعلهم يرتابون أكثر .. ويصممون على فتحه لمعرفة ما به ... »

ـ « ولكن كيف نسترده ؟ »

ـ « سنعود لهم بعد يوم قائلين إننا بحاجة إليه .. وسيكونون هم قد تأكدوا من أنه ليس قنبلة أو جهاز تصنت .. »

بدا عليها عدم الاقتناع .. لكن ما كان بوسعها أن تجد حلاً آخر ..

لافتات فى كل مكان عليها صورة واحدة لوجه مغولى شرس يحاول أن يرسم ضحكة مشرقة على ثغره ، وتحتها تعليقات من نوع (تذكر أن أوجوتاى فى كل مكان) و(أوجوتاى صديقك حين تخضع له .. وعدوك حين تعصاه) .. و(لا نريد مزيدًا من دمائكم .. فساعدونا) ..

وفى كل ناصية يقف رجل شرطة مغولى بثيابه الحمراء المميزة ، يرمق المارة فى شك ويده على مدفعه الرشاش الشبيه بالمسدس ..

واستوقفنا واحد .. وطلب منا بطاقات العبودية .. فناولتها إياه وقلبى يخفق كالطبل .. تفحصها وتفحصنا .. ثم تفحصها فتفحصها .. ثم عاد يتفحصنا ويتفحصها .. ثم سمح لنا بالانصراف وقد بدت عليه خيبة الأمل .

على الأقل البطاقات تؤدى عملها كما يجب ...

قرحتى بدأت تصحو وآلام لا تطاق تمزقنى ، لا بد أن قرحة (سلمى) تفعل نفس الشىء .. إنه التوتر الدائم والجو البوليسى المرهق للأعصاب ..

صوت طلقات رصاص من الشارع المجاور ..

ثم سمعنا صراخًا .. ورأينا اثنين من المغول يجرّان جثة مزقها الرصاص ، ليلقيا بها فى عرض الطريق فوق الثلج .. ثم يعودان إلى جولتهما ..

وتجمع المارة حول الجثة .. المفزع ها هنا هو أن الأمر بدا روتينيًّا لا يثير الذعر فى نفس أحد سوانا .. إن هذا يحدث كل يوم كما هو واضح ...

وسمعنا الناس يقولون عبارات عديدة :

ـ « مسكين ! »

ـ « يبدو أنه يابانى أو صينى .. »

ـ « الأحمق لم يحمل بطاقة عبودية .. »

ـ « لقد أعدماه فورًا .. »

ابتعدنا ونحن نقاوم رغبة عارمة فى الركض كالأرانب .. وأقدامنا لينة ترتجف كأعواد المكرونة المسلوقة ..

ومن بعيد نلمح لافتة (فندق) .. فنهرع إلى هناك ..
كان متوسط النظافة لكنه ليس حظيرة أبقار على كل حال .. وكان موظف الاستقبال يضع عوينات سيمكة ويقف تحت صورة هائلة الحجم للزميل (أوجوتاى) .. رحبّ بنا .. ثم تفحص بطاقتينا .. ومدّ أنامله يضغط على أزرار جهاز (كمبيوتر) على المنضدة .. وقطب جبينه إذ نظر إلى الشاشة ..
سألته (سلمى) فى قلق وهى تمدّ رأسها محاولة معرفة ما هنالك :
- « هل ثمة مشكلة ما ؟ »
- « كلا يا سيدتى .. إنه إجراء روتينى حسب قانون (بيدرا) .. يجب إخطار الشرطة بكل صاحب جنسية أجنبية يطلب مسكنًا .. »
وابتسم ابتسامة مفتعلة ..
فشكرناه .. واقتادنا خادم آسيوى إلى غرفتنا بالطابق الثالث .. وهى غرفة لا بأس بها .. نظيفة نوعًا ، خالية من البراغيث ..
اتجهت (سلمى) إلى النافذة ، فأزاحت ستائرها جانبًا ، ووقفت ترمق الشارع .. على حين نقدت

الخادم بعض قطع العملة .. وأحسنت غلق الباب .. ثم عدت لأجدها ما زالت هناك عند النافذة ..

قالت دون أن تلتفت :

ـ « (سالم) .. سيبلغون رجال الشرطة عنا ! »

هززت رأسى فى حيرة :

ـ « طبعًا يا ملاكى .. هو قال هذا .. إنه قانون (بيدرا) .. »

ـ « لا أعنى بلاغًا روتينيًا .. بل سيبلغ الشرطة أننا مثيران للشك .. ولن تلبث عرباتهم أن تصل إلى هنا خلال ثلاث دقائق .. »

ـ « وما الذى يدعوك إلى افتراض الأسوأ ؟ »

ـ « كانت نظراته مريبة .. وفى زجاج عويناته رأيت انعكاس شاشة الكمبيوتر .. لقد كان عليها رسمان لا بأس بهما لوجهينا ...! »



٥ ـ فالذئب وسط الزحام..
(من جديد)

كان علينا التفكير السريع ، واتخاذ قرار خلال دقيقة ..

سألتها وأنا أثب على قدمى :

ـ « صـ .. صورتنا ؟ وكيف حصلوا عليها ؟ »

ـ « ربما لم تكن صورتنا .. ربما هى صورة رجل وامرأة آخرين .. لكن المؤكد أنهم يبحثون عنهما جاهدين ، وقد عمموا الصورة فى كل مكان كى يبلغ أحدهم عن صاحبيها .. »

ـ « ولكن من ؟ »

قالت وهى تذرع الغرفة جيئة وذهابًا :

ـ « من يدرى ؟ ربما لم يمت الشرطى .. أو كان هناك شهود ، استطاعوا أن يحددوا ملامحنا بالاستعانة برسّامى الشرطة .. وربما كان هناك خونة بين المتمردين وقد أبلغوا عنا .. »

قلت لها :

- « استبعد الاحتمال الأخير .. وإلا لكانت صورتنا الفوتوغرافية عند الشرطة .. بلا أى داع للاستعانة بصورة مرسومة .. والآن .. هل نهرب ؟ »

- « طبعًا .. »

صورة الجثة التى مزقها الرصاص على قارعة الطريق لا تفارق ذهنى ...

يوجد حلّ واحد للفرار .. هو أن نفرّ بسرعة .. بسرعة تفوق كل توقعات هؤلاء القوم .. فلا أحد يفرّ من فندق دخله منذ خمس دقائق ..

وقد خطرت الفكرة لنا فى ذات اللحظة .. فانطلقنا لا نلوى على شىء ..

ثم وثبنا درجات السلم ثلاثًا فثلاثًا .. وكالرصاصة انطلقنا أمام عينى الموظف الذى كان يتكلم فى الهاتف فلم يجد وقتًا كافيًا ليرانا ..

واصطدمنا بثلاثة رجال يدلفون من الباب .. فلم يجدوا وقتًا للاحتجاج ..

وتعثرت امرأة داست (سلمى) على حذائها ..

وبعد ثانيتين كنا فى الشارع المزدحم من جديد ..

فلو أن المغول يملكون شيئًا من الخيال ، لبحثوا عن سحابتين من البخار الأبيض تخرجان من رئاتنا .. ونحن نلهث كقاطرة ....

وأشارت (سلمى) فى ثقة إلى المشهد الذى تتوقعه ..

سيارة شرطة حمراء اللون تتوقف أمام مدخل الفندق .. ليخرج منها ستة رجال من المغول يحملون أسلحة تكفى لاحتلال (موسكو) لو أرادوا .. وهم يركضون كالذئاب المسعورة إلى الداخل ..

ابتعدنا أكثر فأكثر نادمين على أننا لا نملك طاقية الإخفاء ..

معنى هذا أن الطرقات غير آمنة بالمرة .. وبطاقات العبودية لن تحمينا إن لم تؤذنا .. فكل شرطة (نيويورك) تعرف اسمينا المستعارين الآن ..

الحلّ الوحيد هو أن نرجع إلى (الخاسرين) ، ونخبرهم أننا فى مأزق .. وأننا سنموت ما لم يعيدوا لنا الجهاز ..

ولكن .. أى مجرور بالضبط يقود لهم ؟

قالت (سلمى) وهى تنظر إلى الوراء :

ـ كان هناك شارع جانبى يقود إلى الشارع الذى فيه الفندق .. وعلى ناصيته متجر (بيتزا) صغير .. والشارع نفسه شبه مهجور .. »

ـ « هذا جميل .. وماذا عتن شبكة المجارى المرعبة ؟ »

ـ أعتقد أننى عددت المنجنيات .. ثم إننا سنصرخ منادين (كالاهان) ..

لا بد أن آذان هؤلاء القوم مرهفة .

لكن الوقت غير مناسب بالطبع ..

لا بد من الانتظار حتى يجنّ الليل من جديد ...

★ ★ ★

إن دور السينما مناسبة دائمًا للاختباء ..

كانت خطانا قد قادتنا إلى حىّ ملىء بالملاهى والمسارح ودور السينما .. وأنا لم أر (نيويورك) من قبل .. لكنى أعرف أن حيًّا بهذه الصفات لا يمكن سوى أن يكون حىّ (برودواى) ..

الأضواء الملونة الزاهية تتوهج فى كل مكان .. والموسيقا تتسرب فى الهواء كعطر قوى ..

وكانت هناك عدة دور سينما تعرض أفلامًا أمريكية ، ميزت بعضها .. لكنى وجدت دارين تعرضان أفلامًا

لهـا اسـماء منغوليـــة .. وكتبـت أسـماؤها بحروفهـم الشبيهة بديدان تتلوى ..

- « ما رأيك ؟ »

- « أخشى أن تكون هذه الدار للمغول فقط .. »

لكنـــى وجـدت أسـرًا عاديـة تدخـل .. أمريكيـــون يتأبطون أذرع فتياتهم ويدخلون .. لِمَ لا ؟ تعالى نر نوع الفنّ الذى يقدمه هؤلاء الرعاة ..

واتجهت إلى شباك التذاكر ، وطلبت من العاملة الشقراء أن تعطينى تذكرتين .. وأخرجت ورقة بعشرة دولارات .. لكنها بدت مندهشة ..

وببرود قالت وقد أدركت أننى أجنبى :

- « لا نقود .. الأفلام المغولية مجانية ! »

ولما رأت البلاهة على وجهى ، قالت فى سأم :

- « إنه الغزو الإعلامى يا صغيرى ! »

وتقدمت مع (سلمى) إلى الداخل لنمرّ وسط حشد من موظفى السينما يقفون على الصفين .. إذن ما أهمية التذاكر ؟ ما دام الدخول متاحًا لكل من هبّ ودبّ ؟ لكنهم تفحصوا تذكرتينا مرارًا ...

وفى النهـاية جلسـنا فى القـاعة المظلمـة المكيفة

ـ مكيفة بالتدفئة طبعًا ـ وكان عدد الجلوس قليلاً .. يبدو أن الأفلام المغولية غير محبوبة لهذا الحدّ ..

همست (سلمى) وهى تنظر حولها :

ـ « لهذا التذاكر مجانية .. »

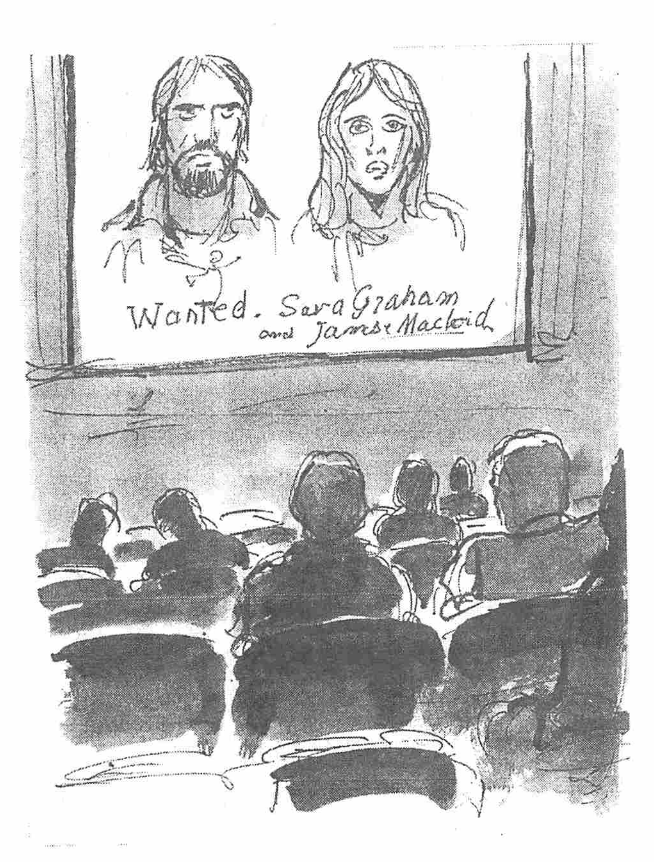
قلت لها هامسًا :

ـ « لا أحد يرغب فى مشاهدة فيلم صنعه قاهروه .. فالدكتاتورية لا تجيد صنع الأفلام .. وقد حدث أن صنع الروس فيلمًا عظيمًا اسمه (المدرعة بوتمكين) لمخرج اسمه (إيزنشتاين) .. وظلّ (هتلر) طوال الحرب العالمية الثانية يصرخ فى مخرجيه ووزير دعايته ، كى يصنعوا له فيلمًا مماثلاً له هذا التأثير فى النفوس .. لكنهم عجزوا عن ذلك .. لأن الدكتاتورية ـ كما قلت لك ـ لا تجيد خلق الفنون .. »

وانطلق شعاع الضوء يرتمى على الشاشة الفضية ..

وهنا رأينا صورة لوجهين : وجه رجل ووجه امرأة .. تمّ رسمهما باللون الأسود .. وقد كتب تحتها :

ـ « مطلوب القبض على (ساره جراهام) و(جيمس ماكلويد) ـ التهمة هى السخرية من النظام ـ اطلب رقم الهاتف 99ø .. كل من يتستر عليهما يعاقب بالإعدام الفورى وغرامة مائة ألف دولار ! »



وهنا رأينا صورة لوجهين : وجه رجل ووجه إمرأة . .

ثم اختفت الصورة وبدأ عرض الفيلم ..
ملت على (سلمى) .. وسألتها همسًا :
ـ « هل هذان هما الوجهان اللذان رأيتهما على الشاشة ؟ »
ـ « أظن هذا .. إذن لم يكن البحث جاريًا عنا ! »
وتنهدت فى ارتياح .. لقد تمّ تعميم صورة هذين البائسين فى كل مكان .. وعلى كل شاشات (الكمبيوتر) والتلفزيون والسينما .. ومن الواضح أنهم سيجدونهما . حتمًا سيفعلون ..
سألتها :
ـ « هل نخاطر بالعودة إلى الفندق هذا المساء ؟ »
ـ « لا .. سنخاطر بالعودة إلى المجارى باحثين عن جهازنا .. »
ثم همست وهى ترتجف :
ـ « لو لم نكن نحن اليوم على هذه الشاشة .. فسنكون هناك غدًا ! »
هنا دوّى صوت من مكبر صوت يقول بحزم :
ـ « العبد والعبدة الجالسان فى المقعدين رقم (٥٤) و(٥٥) ! ممنوع الكلام نهائيًا فى أثناء عرض الفيلم التثقيفى ! »

تبادلنا النظرات فى هلع .. إذن هم يسمعوننا ! هل فهموا ما نقول ؟ لا أظن .. مستحيل أن يستعدوا بمترجم للعربية تحسبًا لدخول أحدنا دار السينما ..

ولكن .. ربما عرفوا أننا نتحدث العربية ! من السهل أن تعرف الاسبانية والعربية والألمانية والعبرية والفرنسية حين تسمعها ، حتى ولو لم تفهم منها حرفًا واحدًا .. فهل يعرفون الآن أننا عربيان ؟

★ ★ ★

حاولت التركيز فى أحداث الفيلم ..

كان مترجمًا إلى الانجليزية لحسن حظى أو سوئه .. فقد كان أسوأ فيلم رأيته فى حياتى باستثناء بعض أفلام مخرجنا الأستاذ (...) ..

الفيلم يدور حول أسرة أمريكية متدينة طيبة .. لكن لها ابنًا وغدًا شريرًا زنيمًا .. هذا الوغد يدخن المخدرات ويلهو مع الفتيات .. ثم يحرق سيارة شرطة مغولية .. الأب العجوز الطيب ينصح الفتى مرارًا بأن يتعقل ويهتدى إلى الصواب .. لكن الفتى الفاسد يتمادى فى غيّه .. وينتهى الأمر بأن تهاجم الشرطة المغولية البيت ..

هنا يتمهل الفيلم ليرينا عملية سلخ جلد الأب العجوز حيًا .. وحرق الأم .. وتمزيق أوصال الأخت .. حتى توشك الدماء أن تسيل من على الشاشة لتغرقنا نحن المشاهدين ...

ثم يقول قائد المغول للفتى الأرعن : « هذا هو ماجنيته على أهلك .. إن طاعة المغول - يا أحمق - هى من طاعة الربّ .. »

ثم يلقى الفتى عقابًا لا داعى لوصفه حتى لا أرهق أعصاب القارئ .. وينتهى الفيلم بالمغول يعاملون المواطنين المسالمين فى تهذيب ورقة ..

هنا سمعت (سلمى) تتحشرج استعدادًا للقىء .. إن معدتها لم تتحمل كل هذا الدمّ الذى ابتلعته على الشاشة ..

- « لا تفعلى يا (سلمى) ! تماسكى يا حمقاء ! »

لكنها لم تستطع .. وأفرغت معدتها محدثة ضوضاء لا بأس بها ..

هنا دوّى الصوت من المكبر يقول :

- « العبدة فى المقعد (٥٥) ! هل هناك ما لم يرق لك فى الفيلم ؟ »

يا للكارثة !

وقفت صائحًا أخاطب لا أحد :

- « إنها .. إنها التهمت طعامًا فاسدًا فى مطعم .. هذا كل شىء .. »

قلتها بالإنجليزية طبعًا ..

هنا دوّى الصوت من جديد :

- « نريد اسم المطعم ! فصاحبه يجب أن يُجلد ! »

يا للمصيبة ! انهم لا يتركون أية تفاصيل .. عدت أصيح :

- « نسيت اسمه إنه فى (بروكلين) .. لا توجد مشكلة »

- « إن صحة العبيد لمن صميم أمن النظام .. حاول أن تتذكر ! »

- « حقًا لا أستطيع .. كانت عربة مقانق عابرة ! »

ساد الصمت برهة .. ثم قال الصوت :

- « حسن .. اجلس يا عبد .. سنبدأ الأسئلة حالاً ! »

أسئلة ؟ ما هو الموضوع ؟ ماذا يريدون ؟

- « المقعد رقم (١١٨) .. ما اسم الصبى الرقيع فى الفيلم ؟! »

هنا نهض كهل وقور الشكل من المقعد (١١٨) .. وفى تردّد قال :

ـ « اسمه (جيمى) ؟ »
ـ « الإجابة خطأ ! ستتلقى عشر جلدات حالاً ! »
وتقدم شرطى يرتدى زيًا أحمر ، ويحمل سوطًا ، كى يقتاد الكهل إلى باب خلفى .. وسمعنا صوت الصراخ وصوت ضربات السوط !
همست فى أذن (سلمى) مذهولاً :
ـ « يا نهار أسود ! »
هنا دوّى الصوت :
ـ « المقعد رقم (٢٠) .. من هو مخرج الفيلم ؟ ومن مصوّره ؟ »
نهضت شابة حسناء من مقعدها .. وبثقة صاحت :
ـ « المخرج هو المغولى العظيم (كيشنجا) والمصوّر هو المغولى العبقرى (نيسابو) .. »
ـ « أحسنت ! واستطعت الفوز بحقنة من لقاح الطاعون ! »
هللت الفتاة فى حماس .. وهرعت إلى الباب الخلفى ..
فهمت ! هذا هو المبرر الوحيد الذى يغرى الناس بدخول السينما :

أملهم فى جرعة من لقاح الطاعون تحميهم من الموت .. ولو خسروا فلن يكون الأمر أسوأ من بعض جلدات ..

وهم ـ المغول ـ يرغبون فى التأكد من أن الناس رأوا الفيلم كاملاً .. فلم يشردوا ولم يثرثروا فى أثناء العرض .. لهذا يعقدون هذا الامتحان بعد العرض للتأكد من أن الرسالة (التثقيفية) قد بلغت الناس كاملة ..

المشكلة هى أننى ظللت شارد الذهن طيلة عرض الفيلم .. فلم أر سوى خطته العامة ..

هنا دوّى الصوت من جديد :

ـ « المقعد (٥٤) ! »

ارتجفت ساقاى .. واستعدت الشعور القديم الذى تركته ورائى فى المدرسة الابتدائية ، حين كنت أسمع اسمى ينادينى به معلم الحساب !

ورفعت رأسى لأسمع الصوت يسألنى :

ـ « ما هو رقم سيارة الشرطة التى أحرقها الصبى الرقيع فى الفيلم ؟! »

بدا مظهرى كأكثر التلاميذ فشلاً وغباء .. وأنا أبحث فى ذهنى عن معلومة أعرف أنه لا وجود لها أصلاً ..

هنا سـمعت صوتًـا هامسًـا يفـحَ مـن خلفـى (وكـان رفيعًا ناعمًا) :

ـ « (١١٧ ـ ب) يا أحمق ! »

ودون أن أنظر خلفى ، التقطت الكرة وصحت :

ـ « (١١٧ ـ ب) ! رقمها كان (١١٧ ـ ب) ! »

هنا حدث شىء غريب ....

★ ★ ★

٦ - هـل هـو الأمـل ؟

فى هذه المرّة لم يكن هناك لقاح ولا جَلد ...

لقد تقدم رجل الشرطة الأحمر إياه عبر الصالة ، حتى وصل لموضعى ثم انحنى ليرمقنى فى حدّة .. وأخرج مفكرة صغيرة ..

وبإنجليزية بشعة سألنى :

- « أين بطاقة عبوديتك ؟ »

مددت يدًا مرتجفة وقدمتها له .. لا بد أن الأمر يتعلق بالذبح هذه المرّة .. ورأيته يدوّن ما فيها فى مفكرته .. ثم أعادها لى وعاد يسأل :

- « أين تقيم الآن ؟ »

- فندق (العبيد السعداء) .. غرفة ٢١٨ .. »

أعاد المفكرة إلى جيبه وقال :

- « سنتصل بكَ ! »

وانصرف تاركًا إياى فى حيرة لا تصدّق .. و(سلمى) مثلى ..

ودوّى صوت صفارة عميقة ، فنهض المشاهدون .. إذن لا بد أن الامتحان قد انتهى .. نهضت مع (سلمى) وأنا أقسم فى سرّى ألا أدخل دور السينما بعد اليوم حتى لو لم تكن مغولية ..

وشممنا هواء الشارع البارد .. وداست أقدامنا على الثلج فشعرنا براحة غامرة .. دسست كفى فى جيبى سترتى ، بينما أحكمت (سلمى) لف كوفيتها على عنقها .. وسألتنى :

ـ « ما معنى هذا ؟ »

ـ « لا أدرى .. »

هنا سمعت من يقول بالعربية بصوت خافت :

ـ « معناه أنك تصلح لتكون بصاصًا لهم ! »

التفتّ فى دهشة .. لأرى رجلاً فى منتصف العمر له شعر فاحم السواد وشارب كثّ ناعم .. يرتدى معطفًا رماديًّا ، ويمسك بيده يد صبى فى العاشرة من عمره .. ويشبهه إلى حدّ ما ..

وعندها عرفت سرّ اللهجة التى لفظ بها الرجل عبارته .. فمظهره يوحى بأنه من الشام .. أو ربما أبعد .. ربما هو تركى يتكلم العربية ..

تظاهرت بالغباء .. ونظرت له فى عدم فهم .. لكنه قال :

ـ « لا تحاول التمثيل .. أعرف أنك عربى .. ربما مصرى كذلك ..

ولا تخش منى فأنا مثلك أحمل بطاقة تقول إننى هندى .. »

ومدّ يده ليصافحنى .. كان قويًا موحيًا بالثقة ..

قال باسمًا :

ـ « أنا تركى أُدعى (قاسم) .. وهذا هو ابنى (سيف) وكنت قد دخلت معه السينما أملاً فى الفوز بجرعة من لقاح الطاعون له .. هلم صافح عمك يا بنى .. »

مدّ لى الصبى الجميل ذو العينين الذكيتين يده مصافحًا .. وابتسم برقة ..

قال الرجل :

ـ « والآن .. هيا نجد مكانًا هادئًا نتكلم فيه .. فليس من المستحبَ أن نقف ها هنا نتكلم بالعربية .. وإلا كان من الأفضل لو علقنا لافتة تعلن جنسيتنا »

ومشينا نحن الأربعة حتى وجدنا متنزهًا شبه خال من الناس ..

كانت هناك أشجار يكسوها الجليد .. ومقاعد متناثرة .. فاخترنا أحدها وجلسنا .. وأشار الرجل للصبى كى يبتعد ليلهو قليلاً .. ثم قال وهو يخرج لفافة تبغ من علبته ويشعلها ، بينما الليل يغلف المكان :

ـ « إن (سيف) هو منقذك الخفى الذى تكلم فى ظلام السينما .. إنه جمّ الذكاء ذو ذاكرة فوتوغرافية . ولا أعتقد أن أحدًا كان يستطيع تذكر رقم السيارة سواه .. »

سألته وأنا أتحنى للأمام كى لا أترك كلمة تفلت منه :

ـ « لماذا أخذوا بطاقتى ؟ وما معنى كلامك ؟ »

ابتسم بثقة .. وقال :

ـ « لقد انبهروا بقوة ملاحظتك .. ووجدوا أنك تصلح جاسوسًا لهم وهو شرف ـ لو تعلمون ـ كبير .. سيتيح لك هذا مزايا مدنية أكثر :

راتب مرتفع ـ حصة تموينية أعلى ـ لقاح الطاعون والدرن .. إلخ .. ولن يكون عليك سوى إبلاغهم بكل ما يريب .. »

ـ « مثل ! »

ـ مثل رجل شرطة يضع حذاءين مدنيين .. مثل رجل يزعم أنه هندى ـ على غرارى ـ ويلتهم شطيرة من اللحم البقرى .. مثل يابانى لا ينحنى عندما يحييك .. مثل انتفاخ وراء سترة مدنى يوحى بوجود سلاح .. »

ـ « وإذا رفضت ؟ »

ـ « لا ترفض ولا تقبل .. أنت حرّ .. كل ما يمكنك زعمه هو أنك لم تر ما يريب .. المشكلة الوحيدة هنا هى أنهم سيبحثون عنك ! »

ـ يبحثون عنى ! »

ـ « طبعًا .. »

ونفث دخان التبغ فى الهواء .. وأضاف :

ـ « سيبحث (أوجوتاى) فى ذاكرته الإلكترونية عن أى معلومات تشير إلى دخولك البلاد فلن يجد .. عندها ستدق الطبول ! »

هنا تكلمت (سلمى) للمرة الأولى :

ـ « (أوجاتاى) هو جهاز حاسوب ؟ »

ـ « تعنين (كمبيوتر) ؟ طبعًا .. إنه الحاكم العامّ للولايات .. إن الصورة التى ترينها جوار اسمه

لا تعنى شيئًا .. هى مجرد محاولة لجعله شيئًا ملموسًا للعامة .. أما العالم فيسيطر عليه (كمبيوتر) عملاق اسمه (هولاكو) .. وما زلت أرى أنكما فى مأزق .. كان عليكما التصرف بحذر أكثر ما دامت بطاقتاكما مزورّتين .. »

ورحنا نتأمل المرج المغطى بالجليد .. وفى ذهن كل منا من الأفكار السوداء ما يكفيه .. لم نكن فى خطر حين دخلنا دار السينما وإن حسبنا ذلك .. أما الآن فنحن فى خطر لا شك فيه .. وقد صارت العودة إلى الفندق مجازفة حقيقية ..

وهنا تذكرت الفيلم السخيف فقلت للرجل :

- « تبًا لها من دعاية فجّة ! ما الذى يدعو هؤلاء الوحوش لمحاولة تقديم فيلم سينمائى ؟ ظننتهم لا يبالون بالتأثير الإعلامى .. »

- « هم كذلك .. لكن المستعمر يحتاج دومًا إلى هذا التأثير .. فهم - مهما بلغ عددهم - لا يستطيعون امتلاك عدد كاف لاحتلال العالم والسيطرة عليه .. لا بد من إرهاب الناس وغسل عقولهم .. والسينما والتلفزيون يقدمان هذه الخدمة بشكل جيد .. والمشكلة هى أنهم محاربون وليسوا فنانين ! »

عدت أسأله :

ـ « وماذا جاء بك إلى هنا ؟ »

ـ هربًا مما هو أسوأ .. إنهم يقومون بحملة إبادة شرسة فى غرب وجنوب آسيا .. جئت إلى هنا حيث لا يتوقعون أن يروا عربًا أو مسلمين .. وقد ساعدنى (أبو فراس) على التسلل .. »

سألته (سلمى) وهى تطوّق عنق الصبى بذراعيها :

ـ « ما سرّ تعصبهم المجنون ضد المسلمين والعرب عامة ؟ »

تنهد .. وألقى ببقايا لفافة التبغ بعيدًا .. وقال :

ـ « لقد قام الكمبيوتر العملاق (هولاكو) بحسابات معقدة ، وإجراءات (سيبرنية) لا يمكن وضعها .. فى النهاية افترض أن الخطر الذى يهدد إمبراطورية المغول سيكون خطرًا إسلاميًا .. وربما عربيًا ..

« النتيجة : صار على المغول أن يتأكدوا من إفناء كل ما هو إسلامى أو عربى .. والعرب المسيحيون يلقون معاملة لا تقل سوءًا على كل حال .. فهم عرب قبل كل شىء ... »

تبادلت و(سلمى) نظرة فهم ...

لم يكن الكمبيوتر مخطئًا على الاطلاق .. ومن الواضح أن مصممه عبقرى ..

- « هل المغول هم من صمموه ؟ »

- « بالطبع لا .. فهم لا يجيدون سوى حرق المدن .. لقد صنعه اليابانيون لهم تحت تهديد السلاح .. واليوم يوجد الكمبيوتر (هولاكو) فى عاصمة المغول فى (سيبيريا) فوق قمم الثلوج .. ومن هناك يرى ويسمع ويعرف كل ما يجرى فى العالم .. »

كان الصبى قد ابتعد كثيرًا .. فصاح الرجل يهيب به أن يعود إلينا .. لكن الطفل كان يلهو فوق الجليد .. يلهو بحركات أقرب إلى رياضة (الكونج - فو) .. وقد أبدى رشاقة وخفة غير مألوفتين ..

قلت للتركى :

- « صبى جميل ذكى .. »

فى فخر غمغم :

- « بل ويجيد استخدام (الكمبيوتر) .. ويجيد أكثر الرياضات .. إننى لأتساءل عما سيكونه بعد عشرين عامًا .. من يدرى ؟ ربما لن يعيش لهذا الحد ! »

طقطقت بلسانى .. وأصدرت (سلمى) آهة استنكار .. وقالت :

ـ « أعوذ بالله ! لم هذا التشاؤم ؟ »
قال وقد اكتسى وجهه بقناع من الجهامة :
ـ « فى عالم كهذا يغدو كل شىء ممكنًا .. لقد رأيت مصرع أمه بعينى .. »
ـ « آسفه ... »
ـ « لو مات ـ وهو وحيدى ـ لكانت نهاية أسرة (قطز) كلها ! »
(قطز) ؟!
وتبادلت و(سلمى) نظرات الذهول ...

★ ★ ★

٧ ـ الغـــــارة ..

ارتجفت .. لكنى حاولت التماسك وسألته :

ـ « هل (سيف) .. هو (سيف الدين) ؟ »

ابتسم ساخرًا وقال :

ـ « طبعًا .. أنتم العرب أدرى بذلك .. »

ـ « أى أن اسمه هو (سيف الدين قطز) ؟ »

ـ « طبعًا .. لكن اسمه فى بطاقة العبودية هو (رام سادجاهى) .. من (بومباى) .. هندوسى الديانة .. »

ثم نهض معلنًا رغبته فى الانصراف ..

وقال لنا وهو يمسك بيد الصبى ، ويشير لنا إلى الشارع القصىّ :

ـ « ستتجهان إلى هناك .. إن الظلام قد توغل بما يكفى .. يوجد هناك متجر للحيوانات الأليفة .. اسألا عن (جيمى) وقولا له إنكما من طرف (قطز) .. سيدبّر لكما سبيل الاختفاء .. »

ولوحَ بيده مودعًا :

ـ « أراكما على خير .. »

وابتعد بالصبى .. والظلام يغلفهما حتى لم نر منهما سوى علامتى تعجب غير متماثلتى الطول ، تبتعدان فى بطء عن عيوننا الحيرى ...

همست (سلمى) وهى ترمقهما :

ـ « إنه هو ! »

ـ « حتمًا هو .. »

ـ « إنها صفات قائد .. ذكى سريع الملاحظة رياضى الجسد .. »

ـ « والمغول لا يعرفون ... »

ـ « إنهم لا يستطيعون التنبؤ .. ولن يفعلوا كما فعل فرعون (مصر) حين ارتقب ظهور سيدنا (موسى) .. »

ـ « حسن .. هذا العالم يسير فى الطريق الصحيح .. »

ـ « حقًا ... »

ونهضنا متجهين إلى متجر الحيوانات الأليفة ..

★ ★ ★

بالإضافة إلى القطط والكلاب والسلاحف - وهى أشياء معتادة جدًا - كان هناك ببر حديث السنَ وسحلية (إجوانا) ..

برز لنا شاب يحلق رأسه بأسلوب (البانك) الشهير .. وقال لنا حين رأى دهشتنا :

- « لا يثير هذا دهشة أحد منا .. فالسادة المغول يحبون هذه الحيوانات لأنها تذكرهم بموطنهم .. هل لى أن أقدم لكما خدمة ؟ »

كانت (سلمى) مشغولة فى تأمل القطط الصغيرة التى تهيم بها حبًا ، بينما قلت وأنا أتحاشى نظرات السحلية المزعجة فى قفصها الزجاجى :

- « نبحث عن (جيمى) .. »

- « أنا هو ... »

- « جئنا من طرف (قطز) .. »

تلفت حوله فى ذعر حين سمع الاسم .. ثم ابتلع ريقه وصاح :

- « بحق السماء ! لا داعى لإذاعة هذا فى المذياع .. تعاليا ! »

وهرع إلى باب خلفى ففتحه لنا .. وكدسنا بالداخل ..

ثم تلفت حوله من جديد وهرع ينضم لنا فى مخزن خبيث الرائحة سائلاً :

ـ « ماذا هناك ؟ »

ـ « مخبأ .. إنهم يبحثون عنا .. »

ـ « هل أنتما من (الخاسرين) ؟ »

ـ « نريد الاتصال بهم .. »

ـ « مائتا دولار ! »

تبادلت و(سلمى) نظرات الارتباك .. كنت أظن الوغد ثوريًا فاتضح أنه مجرد تاجر فى سلع ممنوعة .. ثم من أين لى بالمال ؟

قال مبتسمًا :

ـ « لا تقلق .. فأنا أقبل الدولارات المزيفة ! مائتا دولار مزيف أو خمسون دولارًا أصيلاً .. »

ـ « لا بأس .. »

كان (الخاسرون) قد أعطونا زهاء ألف دولار .. ولا ننوى البقاء حتى تنفد .. فلن أعمل عامل بناء فى أرض المغول هذه أبدًا ..

★ ★ ★



وهرع ينضم لنا فى مخزن خبيث الرائحة سائلاً :

ـ « ماذا هناك ؟ »

نحن الآنٍ فى شقة (جيمى) الواقعة خلف المحل ..
كانت حقًا شقة ثائر متمرد .. وشقة تاجر سوق سوداء .. وشقة لص .. وشقة عزب يحرق شمعة حياته من طرفيها ..
زجاجات فى كل مكان .. بقايا طعام .. صناديق ملأى بسلع ممنوعة .. جوارب مكوَرة فى كل صوب .. أحمر شفاه .. أعقاب سجائر ..
وفى ركن الصالة كان هناك أكبر جهاز تلفزيون رأيته فى حياتى .. ربما هو ٢٠٠ بوصة لو كان هناك شىء كهذا ..
ـ « مرحبًا بكما .. الليلة تبيتان هنا .. وغدًا يراكما (الخاسرون) .. »
وكان قد ابتاع بعض (البيتزا) بالأنشوجة .. فوضع شريحة أمام كل منا ثم صبَ لى كأسًا من (الهباب) إياه .. لكنى رفضت ..
فتح جهاز التلفزيون ليسلينا ..
وعلى الشاشة العملاقة رأينا مشهدًا مهولاً ..
كانت طائرات غريبة الشكل ـ لا بد أنها (خان ـ ١٩) ـ تحلق فى تشكيلات متوالية فوق مدينة لم أميزها جيدًا ..

- « هذه (طهران) .. »

قالها (جيمى) مفسرًا وأراح ساقيه على أريكة قرب مجلسه ..

وعلى الشاشة راحت الطائرات سربًا وراء سرب تلقى عبواتها الحارقة وقذائفها على المدينة ، التى استحالت كتلة من اللهب والدخان الأسود ..

ثم تقدمت طائرة هائلة الحجم وحدها .. لتلقى بقتبلة غريبة الشكل بدورها .. عندها تصاعدت سحابة عشّ الغراب الشهيرة ، المميزة للانفجار النووى ..

قال (جيمى) باستمتاع كمن يرى فيلمًا مسليًا :

- « هذه قنبلة (زيترو) .. لقد ألقوا عشرًا منها على آسيا الشهر الماضى .. »

هنا سألته (سلمى) سؤالاً غير معتاد كدأبها :

- « من يلتقط هذه الصور ؟ »

- « الألمان طبعًا ! فالمغول لا يغامرون بإرسال مصورين مغول إلى هذا الجحيم .. لهذا لديهم فريق تصوير من العبيد الألمان .. »

سألته بدورى :

ـ « وماذا فعل الايرانيون ؟ هل هى ثورة يقمعها المغول ؟ »

نظر لى وضحك حتى سال الدمع من عينيه :

ـ « ماذا بك ؟ تبدو كأنك من عالم آخر .. بالطبع لم يفعل الإيرانيون شيئًا .. إنها حملة إبادة وكفى .. مثلما تقوم أنت بتطهير مطبخك من الصراصير لا أكثر .. إن المغول يعتبرون كل شعب آخر نوعًا من الحشرات لا لزوم لوجوده أصلاً .. »

وعلى الشاشة ظهر الجرحى والأسرى .. وهم طبعًا من البلاد المتاخمة لـ (طهران) .. كانوا فى أسوأ حال والحق يقال ...

وعلى الشاشة بدت مذيعة مغولية ربع حسناء .. تقول بلغة إنجليزية جيدة :

ـ « وهكذا تمكن فرساننا الأبطال بخيولهم النفاثة من إزالة (طهران) من على وجه الأرض ! ترى أين يكونون غدًا ؟ فى (إسلام آباد) ؟ فى (القاهرة) ؟ فى (دكا) ؟ لا أحد يدرى ... »

وتعالت موسيقا فاخرة ربما هى افتتاحية السيوف لـ (خاتشوبريان) ..

ثم ظهرت صورة لموكب طويل يحمل أفراده الهدايا .. وقد بدا عليهم الانكسار والذل .. وتعالى صوت المذيعة يقول :

- « ها هى ذى وفود الأمم تقدم هداياها إلى قائد جيش المغول العظيم .. وكلهم خضوع وانكسار .. »

هنا دوّى صوت مغنية (آبا) تغنى : الفائز يأخذ كل شىء ..

إخراج جيد مؤثر لا أظن المغول قادرين عليه .. فلا بد أنهم استعانوا بمخرج إيطالى عبقرى ليصنع لهم هذا ...

سألت (سلمى) مضيفنا :

- « هل التلفزيون لا يقدم إلا هذا السخُف ؟ »

- « أحيانًا يقدم منوعات مغولية .. أو أفلامًا .. لكن هذا نادر .. »

- « إذن فلننعمْ بالصمت .. »

وأطفأ جهاز التلفزيون .. ثم دعانا إلى النوم ، وقال إن لديه أريكة تصلح فراشًا .. ولسوف يستعملها للنوم تاركًا فراشه لنا .. وفى الصباح يمكننا أن نلحق بالخاسرين الذين سيزوّرون لنا بطاقتى عبودية جديدة ..

والأهم ها هنا أننا سنحاول استرداد جهازنا من (ماك ـ جورج) هذا .. وعندئذ يكون الفرار .. الفرار الجميل ..

ـ « مساؤك حليب .. »

قالتها لى (سلمى) همسًا فى الظلام .. وكنت قد فشلت تمامًا فى تعليمها أن تقول (مساء الخير) مثلنا .. فمن العبث أن أقول لها أين الصواب .. فلا صواب هنالك والأمور كلها نسبية بين العوالم .. لذا قلت :

ـ « مساؤك حليب .. »

ونمت بقلب مثقل ..

★ ★ ★

دخلنا شبكة المجارى من جديد .. وعبر ممرات أكثر تعقيدًا قادنا (جيمى) إلى المكان الذى كنا فيه فى البداية ..

ومن جديد رأينا الثوار يفعلون ذات الأشياء .. وما زال بعضهم نائمًا حتى العاشرة صباحًا وقد بدا عليه إرهاق مريع .. إنهم ليسوا كسالى بل وطاويط .. يقضون ليلتهم فى عمليات التخريب واقتناص المغول ،

ثم يعودون ليأكلوا وجبة خفيفة ، ويناموا حتى الظهر ..
كان (كالاهان) عاكفًا على تنظيف بندقية آلية سرقها من الشرطة ، حين رآنا .. فنظر لنا نظرة عابرة وواصل ما يقوم به ، وهو يقول :
- « المصريان ؟ مرحبًا .. هل أبليتما بلاء حسنًا ؟ »
تولّى (جيمى) الردّ :
- « إن الشرطة تقلب الأحجار كلها بحثًا عنهما ! »
- « بهذه السرعة ؟ »
وهنا ظهر الغول الآدمى (متاك - جورج) وهو يصدر خوار الثيران ، ويلتهم فخذ خنزير على سبيل الإفطار .. فما إن رآنا حتى تكدر مزاجه ..
صاحت (سلمى) فى كياسة :
- « مرحبًا يا سيد (ماك - جورج) .. أما وقد تأكدت من سلامة طويتنا أرجو أن تعيد لى الجهاز .. »
اتسعت عيناه فبدا صفارهما واضحًا .. وقال :
- « أى جهاز ؟ »
- « الجهاز الذى أخذته منا بقوة العضلات منذ يومين .. »
بصق على الأرض .. وقال وهو يقضم شريحة أخرى :

ـ « آه ! ذلك الجهاز القذر ؟ إنه ليس معى ! »

ـ « وأين هو ؟ »

ـ « عند (لارى هولدن) أو (الجميل) كما نسميه .. إنه يحب هذه الأشياء .. »

ـ « وأين (لارى هولدن) ؟ »

ـ « إنه لم يعد بعد .. لقد ذهب أمس لتفجير مركز الاتصالات ، ويبدو أن المغول قد التهموه حيًّا ! والآن كفى ثرثرة فأنتم تفسدون عملية الهضم ! »

تبادلت و(سلمى) نظرات ذاهلة ..

كنت أعرف أن شيئًا كهذا سيحدث .. لكن ما كان بوسعى منعه .. لهذا لم يعد يعنينى أى شىء سوى التعبير عن حنقى الشديد ..

صحت فى غلّ :

ـ « أنت برميل ملىء بالأوحال ! »

ـ « هه ؟ »

وتدلت شفته السفلى فى غباء .. قطعة لحم تساقطت من فيه وهو لا يصدق أن أحدًا يشتمه .. لا بد أن هذا لم يحدث منذ ثلاثين عامًا ..

عدت أقول وأنا أحاول تذكر الشتائم الإنجليزية التى كنت أسمعها بكثرة فى الأفلام فى عالمى :

- « أنت أحمق ! كيس من القاذورات .. لا أكثر ! »

هنا بدأ يفهم .. فتقدم نحوى .. وانحنى مترًا كى يقرب رأسه من رأسى ..

ثم وجدت نفسى أطير إلى الحائط لأصدمه .. وأنفى لا ينزف لأن أوعيته الدموية تهشمت مع عظامه ..

وطار ستة من الرجال كى يتعلقوا بالرجل محاولين تهدئته ، مرددين عبارات على غرار (خليك كبير) و(امسحها فىَ ..) ..

أما هو فراح يزمجر .. لم يكن يسبَ أو يلعن .. بل يطلق زمجرة دبَ ثائر .. واللعاب يتطاير من شدقيه ..

ساعدتنى (سلمى) على النهوض . وكان وجهى قد تحول إلى قطعة من (الهامبورجر) المصنوع فى المنزل .. لكننى كنت مستعدًا للتمادى ..

وبدأ الثور يهدأ .. لكنه ظل يصوّب إلىَ نظرات نارية نووية ..

صاحت (سلمى) وهى تحاول إصلاح شفتى الممزقة :

- « هل جننت ؟ كل هذا من لكمة واحدة وجهها لك .. وبرغم هذا تريد المزيد ؟ »

ـ « لقد استفزنى الوغـ .. الوغد .. وكان عليه أن يتـ .. يتقى شرّ الحليم إذا غضب .. ضب .. ضب ! »

لقد صار علينا أن نبقى ها هنا للأبد !

يا لحماقتك يا (سلمى) ، ويا لديكتاتوريتك) ! لـو لم تتمسكى برأيك لكنا الآن بعيدًا فـى عـالم آخـر ربمـا هو إلى الجنة أقرب ..

يجب أن نجد (لارى هولدن) حالاً ...

★ ★ ★

٨ ـ أنقـــذوه !

من الحمق أن أفترض أن هذا الحشد من الثوار لا يضمّ جاسوسين أو أكثر من جواسيس المغول ..

الأمر سهل ويقينى .. لكنه يبدو عسير التصديق حين ترى هذه الوجوه الجادّة المصممة على الانتقام .. من الصعب أن أتصوّر هذه الفتاة التى امتلأ وجهها بالتجاعيد والمقت ، وهى تعالج شحنة ديناميت .. من الصعب أن أتصور أنها تمثل دورًا محبوكًا .. ومن العسير أن أتصور هذا عن الوحش (ماك ـ جورج) أو (كالاهان) الودود .. كلهم يبدون صادقين كالصدق ذاته ..

لكنى أعرف ذلك الآن جيدًا .. وكان يجب أن أصدقه ..

★ ★ ★

حينما برز لنا من النفق رجل له شعر ناعم وشارب كثّ .. وكان يحمل بين ذراعيه جسدًا صغيرًا يلفه بمعطفه ..

عندها عرفت أن هذا هو (قاسم) التركى .. وأدركت من وجهه أن هناك كارثة ما .. كارثة لا جدال حولها ..

كان ملهوفًا .. لكنه تقدم وسط الرجال المندهشين ، وأرقد الصبى على إحدى الحشايا المتناثرة .. ثم ركع جواره وقال :

ـ « إنه محموم .. يهذى منذ ساعات .. »

يا لعاطفة الأب !

لقد هوت به من عليائه التى كان فيها شديد الثقة والكبرياء إلى حضيض الانهيار النفسى والمعنوى .. كأنه يفتش عن قدم إنسان يلثمها مقابل أن يعود ابنه سالمًا ..

قال (جيمى) مفسرًا للمجتمعين :

ـ « هذا (قاسم) .. أو (سارو سمادهى) حسب بطاقة العبودية .. »

ـ « نعلم .. »

وجثا أحدهم على ركبتيه جوار الصبى .. وتحسس عنقه .. وشفتيه اللتين غطتهما قشرة بيضاء لزجة .. وقال :

ـ « التشخيص واضح يا (قاسم) .. وأنت تعرفه كما نعرفه ! »

اتسعت عينا الأب .. وتلفت حوله كأنه يبعد اتهامًا مريرًا :

ـ « لا ! إن (سيف) نظيف جدًّا .. ولن يصاب بالـ .. بالـ .. »

ـ « إن برغوثًا واحدًا يكفى كما تعلم .. »

قال (ماك جورج) بصوته الغليظ :

ـ « نحن لن نسمح ببقاء حالة طاعون دملى ها هنا ! »

صاح الأب فى توحش وعيناه تدمعان كمدًا :

ـ « لكن إذا عدت به لدارى سيموت بالطاعون .. أو بنيران فرقة التطهير المغولية .. وهو .. هو لا يطيق الحرّ ! »

وسال الدمع ليغرق خدّيه .. لكن (ماك ـ جورج) قال :

ـ « هـذا قدرك .. إن مصلحة المجموع أهم من مصلحة الفرد .. »

ـ « لن أفعل ! »

ـ « لا مجال للاختيار .. »

ـ « أيها الدبَ الفظ ! أنا أستطيع أن .... »

واندفع ليضرب العملاق الزنجى .. وهو خطأ يتكرر كثيرًا هذه الأيام .. وبعينى رأيت كيف كنت أحمق ضعيفًا عندما فعلت الشىء ذاته منذ ساعات .. إن مهاجمة الدبَ الأشهب بيدك العارية يجعلك لا تدرى ما يحدث لك حقًا ..

وراحت (سلمى) تجفف الدماء عن وجه الرجل وثيابه ..

بينما مشيت أنا لأقف أمام (ماك ـ جورج) .. لقد صار هذا الفتى مصدر كدرٍ دائمٍ لى .. وكان علىّ أن أتكلم ..

قلت لهم بصوت متحشرج :

ـ « اسمعوا يا حمقى .. لن أدخل فى التفاصيل .. لكنى أقول لكم إن هذا الصبى المريض .. هذا الغلام المحتضر .. هو أملكم الأخير فى الخلاص من المغول ! لقد تأخر فى الظهور سبعة قرون كاملة ، لهذا سيطر المغول عليكم .. لكنه قد ظهور الآن .. وهو الذى سيكسر شوكة هؤلاء الرعاة المفترسين .. لكنكم ـ بغباء ـ تتركونه يموت .. »

اتسعت العيون تلتمع بنظرات عدم التصديق .. بل الاستعداد لتمزيقى ..

وسمعت من يقول :

ـ « ها ! إنها نبوءات العرافين إذن ! من أنت يا فتى ؟ (إيليا) ؟ »

ـ « لا تصغوا لهذا الهراء ! »

قلت بنبرة أقوى :

ـ « أنا أعرف ما أقول فلا تنتظروا حتى يموت الصبى وتزعموا أننى كاذب .. إننى أؤكد بكل أمانة أن من سينقذ هذا العالم يُدعى (قطز) .. (سيف الدين قطز) .. ولا أعرف واحدًا آخر بهذا الاسم سوى الصبى .. »

ـ « والدليل ؟ »

ـ « لا دليل سوى كلامى .. لكنٍ كمبيوترٍ المغول ـ ماذا كان اسمه ؟ ـ قد استنتج شيئًا مماثلاً .. لهذا تعليمات المغول تقضى بإبادة العرب والمسلمين عن بكرة أبيهم .. وغارة (طهران) التى وقعت أمس تقول إننى صادق .. »

ورفعت أصبعى السبابة مؤكدًا :

ـ « حسابات التنبؤ المستقبلية للكمبيوتر تقول إن

الخطر القادم عربى أو مسلم .. وأنا ـ بمصادرى التى لن أعلن عنها ـ أقول إن الخطر القادم هو صبى من أصل تركى يدعى (سيف الدين قطز) .. فهل مازلتم مصرين على الإنكار ؟ »

تبادلوا النظرات .. واضح أن الشك بدأ يغزو نفوسهم ..

وقال (كالاهان) وهو يتأمل الصبى :

ـ « لماذا لانحاول إنقاذه يا (ماك ـ جورج) ؟ من الخسارة أن يموت ملاك صغير كهذا .. »

ظلّ الثور الأسود صامتًا يفكر ..

ثم ـ بعد برهة ـ أشار بيده إلى ممر جانبى .. وغمغم :

ـ « ليكن .. لكن احرص على عزله عن الآخرين ... »

وحمل الأب ابنه إلى المكان المقصود ..

كانت هناك حشية على الأرض .. ومصباح (كيروسين) .. ولا شىء آخر سوى رائحة المجارى القوية ..

شمرت (سلمى) عن ذراعيها .. وصاحت :

ـ « سأعنى به .. أعرف أننى أستطيع العناية به .. »

وقمنا بتجريد الصبى من ثيابه ، وأحرقناها بعناية .. ثم تخلصنا من ثيابنا أيضًا وارتدينا ثيابًا نظيفة ، ووضعت (سلمى) قِناعًا صغيرًا على أنفها .. وراحت تضع الكمادات للصبى مستعملة دلوًا مليئًا بثلج مجروش من الشارع ..

ـ « نحن بحاجة إلى مخفَضات حرارة .. وبعض (الستربتوماسين) .. »

سألتها فى دهشة :

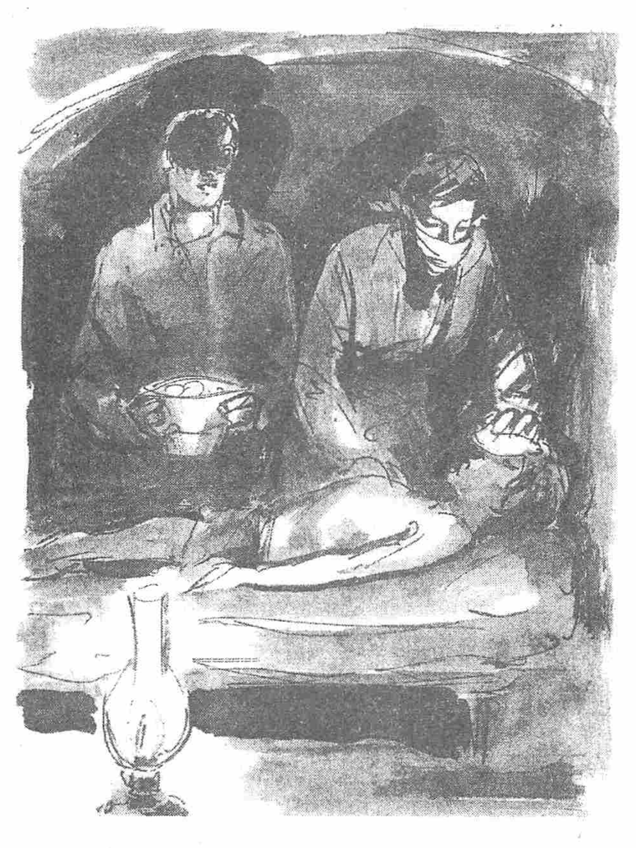
ـ « من أين تعرفين ما ينبغى عمله ؟ »

ـ « إنك تقرأ هذه الأشياء أحيانًا .. »

المشكلة هى أن الدواء لا يُصرف فى هذا العالم إلا بتذكرة طبية .. ولا يمكن الحصول على واحدة إلا فى وجود طبيب .. والطبيب سيبلغ فرق الحرق وإلا احترق هو شخصيًا ..

قال (كالاهان) وقد بدا الأمر يثير اهتمامه :

ـ « إن (أبو فراس) قد جلب لنا بعض المعونات الطبية .. ربما وجدنا بينها ما يصلح .. »



وراحت تضع الكمادات للصبى مستعملة دلوًا مليئًا بثلج
مجروش من الشارع . .

واقتاد (سلمى) إلى ثلاثة صناديق متراصة ملأى بالأدوية .. ولم تكن الأسماء التجارية معروفة لنا لكننا رحنا نتهجى الحروف حتى وجدنا كلمة (ستربتوماسين) .. وبعملية حسابية بسيطة عرفنا الجرعة الملائمة للصبى ..

كان المسكين يهذى .. وقد تحشرج صوته ، فلم نعد نفهم شيئًا مما يقول .. وحين عرّت (سلمى) خُنّ فخذه وجدنا العلامة المشئومة إياها ..

الخراج الساخن الأحمر الثائر ..

ـ « ثمة فرصة لا بأس بها فى أن ينجح فتح الخراّج فى إنقاذه .. »

ـ « وكيف تعرفين هذا ؟ »

ـ « قرأت عندكم تاريخ الحملة الفرنسية فى (عكا) .. وعرفت ما كان أطباء (نابليون) يفعلونه لإنقاذ مرضى الطاعون الفرنسيين .. »

ـ « والعدوى ؟ »

ـ « لن تحدث .. لقد قطع (ديجنت) طبيب الحملة الفرنسية فخذه بمبضع ملوث بصديد من جندى فرنسى يحتضر .. ولم يحدث له شىء .. »

وطلبتْ خنجرًا .. فكان عندها خمسة منها ..
وسرعان ما بدأت تمارس مهمتها البشعة ..
رباه ! لقد كانت (سلمى) ثابتة الجنان حقًّا ..

★ ★ ★

وفى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى ، دخلتُ (المستشفى) الصغير الذى أوجدتْه لنا .. فوجدتها تواصل وضع الكمادات .. بينما أبو الصبى يحاول إقناعه بتجرع بعض الحليب ..

ـ « كيف الحال ؟ »

ابتسمتْ .. وكانت عيناها حمراوين بلون الدم إرهاقًا .. وأرخت قناعها :

ـ « الحرارة تنخفض .. لكن الخطر لم يتزحزح .. »

لكن وجه الصبى كان أقل احتقانًا ...

وعرفت أننا ـ حتى هذه اللحظة ـ قد بدأنا نربح معركتنا المرتجلة مع الموت .. ونربحها بماذا ؟ بوسائل تثير ضحك أى طبيب فى أحقر وحدة ريفية معدومة الإمكانيات ..

الخطر لم يتزحزِح ..

لكنه لم يعد واثقًا من نفسه إلى هذا الحدّ ...

★ ★ ★

ليلة الكريسماس ...

خرجنا من المجارى لنلقى نظرة على المدينة .. فأنا لم أر (الكريسماس) فى بلد أجنبى قط .. ومن الغريب أننى أراه حين أراه فى بلد أجنبى فى كوكب آخر .. ووسط طغيان المغول .. وخطر الطاعون ..

رأيت ذلك الطابع الساحر الحزين للجليد والبرد وأغانى عيد الميلاد ، والأضواء التى تلتمع متلألئة بمئات الألوان ، فوق الأشجار التى كساها الثلج .. والمِزوَد بأبقاره وخرافه .. وتماثيل العذراء ووليدها ..

كان العبيد يحاولون أن يستمتعوا بحياتهم ، ناسين ـ أو متناسين ـ الطاعون والمغول وصوت الطلقات التى تدوى فى الأحياء الخلفية ..

لكن المغول ما كانوا ليتركوا لحظات كهذه ...

كان التلفزيون ينقل باستمرار المذابح التى يقومون بها فى دول الشرق الأوسط .. ثم ـ فى السابعة مساءً ـ أعلنت المذيعة بوقار عن الانتقال إلى (مقبرة الجدود) لنقل طقوس (عيد المومياء) ...

ـ « عيد المومياء ؟ »

ـ « طبعًا .. لقد اختاروا أن يكون هذا العيد ليلة

الكريسماس لإفساد متعة المحتفلينٍ فى كل مكان .. »

وكانت مقبرة الجدود مبهجة حقًا ..

مومياوات معلقة من خطاطيف فى كل صوب وعلى كل جدار .. وقد راحت الكاميرا تجوّل بينهم مع تنويه عن اسم كل مومياء نراها .. والأمجاد التى قامت بها ...

كنا نشاهد هذه السهرة الممتعة فى وكر (الخاسرين) تحت الأرض ، وبالطبع لم أجرؤ على إظهار دهشتى أو تقززى لأن ما يدور كان روتينيًا بالنسبة للجالسين جميعًا ..

وبعين لا تصدّق رأيت المغول يسكبون الكيروسين على ثلاث أو أربع مومياوات .. ثم يشعلون فيها النار ..

وراحت الجذوة الرهيبة تزداد توهجًا .. والضوء الأصفر المقيت يغمر الوجوه .. فيما المغول ينشدون بصوت رهيب أنشودة ما .. لا بد أنها نوع من الحنين لأمجاد الماضى ...

قال (كالاهان) ويده على ذقنه .. وقد أحسّ بحاجة إلى التعليق :

- « إن الأوغاد يقدسون النار حقًّا .. وهم بهذا يمنحون التكريم الأعظم لأجدادهم ... »

ثم ابتسم بخبث .. وأردف :

- « لكن الحرق ينتهى بنبوءة دائمًا .. دعنا نسمع ما يُقال .. »

لم تعد معالم المومياوات ظاهرة .. فقد تحولت إلى نوع من الفحم الأسود .. والدخان يزداد كثافة ..

- « تبًا ! يا له من حفل منوعات ! »

وإذا بمغولى أشيب اللحية ، يرتدى ثيابًا تقليدية كالتى ارتداها المغول يومًا وهم يفارقون ثلوج (منغوليا) ، يتقدم فى تؤدة نحو المومياوات المحترقة .. وينحنى .. ويصغى ..

هنا دوّى صوت رهيب يقول أشياء لا أعرف كنهها .. ورفع الكاهن - لا بد أنه كاهن - عقيرته يردد ذات الكلام ..

وهنا بدأ المرح .. الصياح .. آلاف المغول يرقصون حول المومياوات المحترقة .. يلوحون بالسيوف .. يجرعون الخمر حتى الامتلاء ..

بينما نحن نرمق كل هذا فى غيظ غبى .. أو غباء مغتاظ ..

التفت أحد الثوار إلى (كالاهان) يسأله :

ـ « ما رأيك ؟ »

ـ « الأمر واضح .. »

وتنهد فى استسلام ..

سألته ـ وقد أدركت أنه يجيد اللغة المنغولية ـ عما هنالك .. فقال :

ـ « لقد تكلمت الأوراح .. قالت لهم إن الخطر الذى يهدد أمة المغول مريض الآن تحت الأرض .. فى إحدى مدن (أمريكا) .. وأنه حتمًا ميت .. فلا خوف على المحاربين الشجعان .. »

وهنا سمعت صرخة (سلمى) .....

صرخة لم يسمعها سواى .....

★ ★ ★

٩ ـ أحـدهم بيننـا ..

هرعت إلى المستشفى المرتجل متوقعًا أننى سأجد الصبى ينظر للسقف بعينين لا تريان ، و(سلمى) تولول ، والأب فاقد الوعى أو يولول بدوره ..

حمدًا للَّه لم أر شيئًا من هذا ..

فقط كانت (سلمى) واقفة فى منتصف القاعة ، ويدها اليمنى فى خاصرتها ، ويدها اليسرى تمسك بزجاجة حقن ، وعلى وجهها تعبير اتهام لا يمكن وصفه .. وحين رأتنى ارتفع حاجب الشك الأيسر وقالت :

ـ « (سالم) .. لقد كنت موشكة على إعطاء الصبى حقنة المضاد الحيوى ، حين اكتشفت أنها تحوى هذا الشىء ! »

تقدمت فى خطوات مترددة ، وأمسكت بزجاجة الـ (ستربتوماسين) التى فى يدها .. وتأملتها فى نور المصباح ..

كان الأمر أخطر - إلى حدّ ما ــ من انتهاء تاريخ الصلاحية .. لقد تم إلصاق ورقة مزيفة على الزجاجة التى يعلم اللّه وحده ما تحتويه ..

قلت لها وأنا ألقى بالزجاجة فى أحد الأركان :

- خطأ قاتل .. ولا بد أن هناك من عبث بهذه المعونات .. إن هذه الأشياء تحدث .. »

قالت بنفس صيغة الاتهام :

- « تحدث كثيرًا جدًّا .. لأننى وجدت ذات التلاعب فى زجاجة مخفّض الحرارة أمس .. ثم اكتشفت أن مسحوق اللبن الذى كنت أقدمه له لا يذوب فى الماء جيدًا .. وقد أجريت تجربة صغيرة على متطوع رضى بأن يذوق بضعة ملليجرامات من المسحوق .. مجرد جزء صغير من طرف الملعقة .. وكانت النتيجة حاسمة .. »

عندها عرفت سرّ هذه الكتلة من الثياب المكوّمة فى ركن القاعة .. لقد كان هذا هو (قاسم) - المتطوع - الذى تمدد على الأرض ، غارقًا فى القىء والأنين .. لقد لمحته بطرف عينى ولم أدر ما هو ..

كان حيًّا لكنه يتألم إلى حدّ يجعله يتمنى لو لم يكن ...

تساءلت فى غباء :

ـ « وما معنى هذا ؟ »

ـ « معناه أن هناك من يحاول جاهدًا الخلاص من (قطز) الصغير .. وبالتالى هو عميل للمغول .. »

ـ جلست على الأرض محاولاً أن استجمع أعصابى .. وقلت :

ـ « ولكن لماذا ؟ »

ردّت وهى تتناول زجاجة حقن جديدة وتتأكد من مظهرها :

ـ « لأنك كنت مقتنعًا فى خطبتك البليغة .. ويبدو أن هناك من اقتنع بها أكثر من سواه .. »

ـ « لا أعتقد هذا .. فالمغول ـ لو علموا مقرّ الثوار ـ لقادرون على اقتحام المكان وحرقه قبل أن يرتدّ إليك طرفك .. ويمكنهم التخلص من الصبى وأبى الصبى وأجداده ، دون حاجة إلى هذه الألاعيب التى تنم عن ضعف وجبن ..»

قالت وهى تملأ المحقن :

ـ « بالعكس .. إن عميلهم هنا يجعلهم على علم تام بأسماء الثوار وتحركاتهم .. فهم يمارسون

ما يقوم به رجال المخابرات حين يتركون جاسوسًا (تحت السيطرة) .. فيتمتع بحريته كاملة لأن حريته تقدم لهم من المعلومات ما هو أكثر قيمه من القبض عليه .. ولا بد أن عميلنا الهمام قد تلقى أمرًا بالخلاص من الصبى على سبيل الاحتياط .. »

- « وبالطبع لو مات الصبى فالطاعون هو المتهم الوحيد .. »

قالت وهى تفرغ المحقن فى فخذ المريض :

- « أو أكون أنا السبب لأننى جاهلة بالطبَ .. »

هنا قلت وقد تذكرت شيئًا :

- لقد فاتك منذ ثوان احتفال المغول بحرق المومياوات على شاشة التلفزيون .. كانت هناك نبوءة بصدد هذا الصبى .. »

- « بالطبع هى نبوءة صادقة جدًا .. لأنها تقرير مخابرات وليست نبوءة .. وهذا يعطى مصداقية لكهنتهم النصابين .. »

غطيت وجهى بيدى .. وهمست :

- « رباه ! أنا خائف ! »

هرعت لتجلس جوارى على الأرض وطوقت عنقى بساعدها ..

ـ « خائف يا حبيبى الصغير ؟ »
ـ « إننى لا أحتمل جو الأخطار والمؤامرات هذا .. فأنا رقيق الإحساس .. ربما جبان كذلك .. »
ـ « كلا .. لست جبانًا .. فقط أنت لا تخجل من الاعتراف بالخوف .. »
كانت رقتها تغمرنى ..
وتذكرت ـ فى زحام الهموم ـ أننى أحبها كثيرًا .. فقط لم أجد وقتًا كافيًا للتعبير عن ذلك أو لاستعادته ...
وهناك إذ جلسنا على الأرض نرمق جسد الصبى النائم ـ والذى بدأ يتحسن بشكل واضح ـ كان السؤال الذى يؤرقنا هو ..
من هو ؟ من هو ؟

★ ★ ★

بالطبع هو (ماك ـ جورج) الدبّ الأسود الفظّ ..
قالت (سلمى) باسمة :
ـ « لا أظن .. أنت تكرهه مثلى لكن ذكاءه المحدود لا يتيح له أن يلعب دور العميل .. إننى أفكر فى آخر واحد يمكن التفكير فيه .. (كالاهان) .. إن الأشخاص شديدى المودة يكونون هم الجناة دومًا فى القصص البوليسية التى على غرار (من فعلها ؟) .. »

ـ « وماذا عن (جيمى) النصاب ؟ »

ـ « وماذا عن باقى الثوار ؟ إن الاحتمالات كثيرة جدًا .. لكن يجب أن نثق بواحد .. »

ـ « أنا أعرف ! »

كان هذا هو الأب التركى الذى تحامل على نفسه ليجلس .. وهزّ رأسه ليتخلص من الدوار المزعج .. وراح يجفف ما على وجهه من عرق ، وما على شفتيه من قىء ...

قالت (سلمى) فى سرور :

ـ « يسرنى أنك لم تمت بعد .. »

قال وهو غير مستعدّ للردّ على دعابتها :

ـ « (أبو فراس) .. سنذهب إليه .. إنه يعرف ما يجب عمله .. »

ـ « ولكن ..... »

ـ « البقاء هنا لا يعنى سوى موت الصبى .. فى هذه المرة لن يكون الطاعون هو السبب ... »

وراح يجمع زجاجات الدواء المبعثرة والسرنجات فى كيس بلاستيكى .. ثم طلب منى أن أحمل الصبى لأنه لا يقدر على ذلك .. أنا ؟ أحمل بين ذراعى مريض طاعون ؟ إن الرجل يبالغ حقًا ..

همست (سلمى) وقد فهمت ما يدور بخلدى :

- « هلم .. لقد فعلها (بونابرت) مع مريض طاعون فى (عكا) .. ولم يكن هناك علاج للمرض وقتها .. »

- « يا سلام ! لقد فعلها (بونابرت) كى يزيل مخاوف الأطباء من المرض ويضرب لهم مثلاً شجاعًا .. وربما فعلها تظاهرًا كى يتحدث عنه التاريخ بإعجاب .. لكن ماذا أحاول إثباته أنا ؟ »

تنهدت فى صبر .. وقالت :

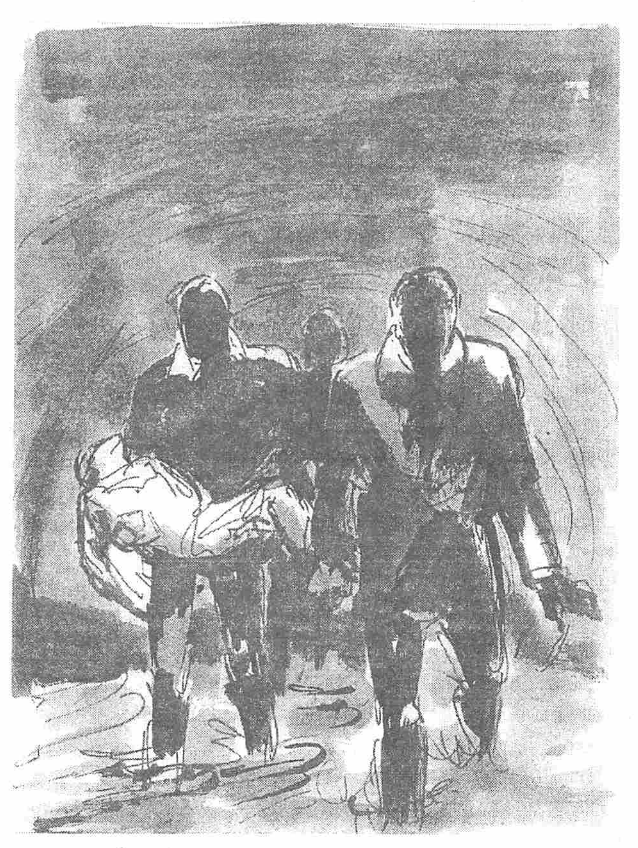
- « (سالم) ! احمل الصبى ! »

وعلى كل حال فعلتُ ما طلبته منى حرفيًّا ...

وفى هذه المرة لم نخرج إلى القاعة الرئيسية حيث الثوار ، بل قادنا الأب إلى ممر جانبى متعرج مظلم .. ورحنا نركض لاهثين .. ومياه المجارى تتناثر تحت أقدامنا ..

طراش ش ! دوّى هذا الصوت أكثر من مرة حين كان أحدنا يتعثر أو يوشك على ذلك .. لكننا واصلنا ركضنا هاربين من المكان ...

وحينما فُتح غطاءَ المجرور ؛ لم نكن نعرف أهذا ليل أم نهار .. فكلّ الأوقات تتشابه تحت الأرض ..



ورحنا نركض لاهثين . . ومياه المجارى تتناثر تحت أقدامنا . .

لكننا لمحنا اللون الأسود .. والأضواء الخافتة القصية ، فعرفنا أننا ليلاً ..

بل فى منتصف الليل على وجه الدقة ..

الجليد يغطى الأرض .. ومن بعيد تسمع أناشيد الكريسماس .. وتسمع جلبة المحتفلين .. لكننا هنا نحاول أن نعيد غطاء المجرور إلى مكانه ، ونهيل الثلج عليه ليبدو غير مختلف عما حوله ..

واجتزنا بضعة أزقة من تلك التى لم نر سواها فى (نيويورك) ..

وعند قارعة الطريق رأينا الشرطى المغولى ..

وكان يشير نحونا بفوهة بندقيته الآلية .. وسمعناه يهتف :

ـ « تعالوا ! »

★ ★ ★

فى رعب تقدمنا .. لكن الأب كان أكثرنا جرأة ..

رأيته يدنو من الشرطى .. ينحنى ليدنى فمه من أذنه ويهمس بشىء ما .. هنا ابتسم الشرطى وتأملنا قليلاً ..

ثم ـ بعربية واضحة ـ سمعته يقول :

ـ « مرحبًا بكما .. أنتما فى أمان الآن ! »

ـ هتفت (سلمى) فى ذهول :

ـ « أنت ؟ »

ـ « نعم أنا (أبو فراس) .. إن نوبة حراستى هنا دائمًا .. والجميع يعرف أين يجدنى .. »

قلت أنا منبهرًا :

ـ « تنكر متقن حقًّا ! »

ـ « إنه كذلك .. ولا يكلف كثيرًا سوى إطالة شاربيك ، وإجراء جراحة تجميل لجعل عينيك مشدودتين ضيقتين .. لم يستطع أحد أن يشك فىّ على مدى خمسة أعوام .. »

ـ ثم دعانا إلى وكره .. وهو بيت صغير من القرميد الأحمر على بعد مائة متر من المكان الذى قابلناه فيه ..

أوقد النار فى مدفأة صغيرة ، وأعدّ لنا بعض الشاى ، ثم مسح بيده على جبين الصبى .. وقال :

ـ « أرى أنه يتحسن .. ما اسمه ؟ »

ـ « (سيف) .. »

ولم أرد أن أوضح أكثر .. فمن يدرى ؟

قال الأب :

ـ « نريد تهريبه خارج البلاد باسم مستعار .. نريد بلدًا آمنًا يترعرع فيه فى سلام .. ربما (نيوزلندا) أو (أستراليا) .. »

ـ « هل لى أن أعرف السبب ؟! »

صمت الأب مفكرًا .. ومن الواضح أنه قرر أن يخفى أوراقه لأسباب مشابهة لأسبابى .. لم يعد من الممكن الثقة بأحد فى هذا العالم ..

هنا نظر (أبو فراس) لى و(سلمى) .. وقال :

ـ « والآن هل لى أن أتشرف باسمكما .. وكيف دخلتما البلاد ؟ »

قال الأب وهو يرشف الشاى :

ـ « كيف لا تعرفهما يا (أبو فراس) ؟ ما من عربى يدخل البلاد من دون عونك »

ـ « لهذا أسأل .. ربما أنسى الأسماء لكنى لا أنسى الوجوه .. »

وابتسم ابتسامة قاسية .. وأردف :

ـ « وعليهما أن يثبتا لى أنهما ليسا جاسوسين للمغول .. »

★ ★ ★

١٠ ـ الفـــرار ..

في هذه المرة كـان لا بـد مـن أن نحكـى كـل شـىء بالتفصيل ..

بـدا الأمـر لـ (أبو فـراس) كإحـدى قصـص الخيال العلمى .. وفى الغالب لم يصدق حرفًا .. لكنه افـترض كذلك أننا معتوهان ولسنا جاسوسين لدى المغول ..

★ ★ ★

وحينما وصلت بقصتــى إلـى الـدواء المغشـوش بـدا الاهتمام على وجهه ، الذى تمكن جراحو التجميل مـن جعله وجهًا مغوليًّا شرسًا ..

وقال وقد بدأ يفهم :

ـ « لا بد من وجود جاسوس .. هذا طبيعى .. لكنى الآن أعرف من هو .. إنه (كالاهان) طبعًـا .. فهـو الوحيـد الذى يتعامل مع صناديق المعونات الطبية والألبـان .. ثم إنه ضالع فى تدبير كل خطة فاشلة قام بها (الخاسرون) .. عندمـا يتجـه خمسـة منهـم لتفجـير مخـزن سـلاح ، ويجـدون المغول بانتظـارهم .. مـن صـاحب الخطـة ؟

(ستيفن) و(كالاهان) .. عندما نخطط لنسف (أوجوتاى) ونجد المغول قد نقلوا كابلاته .. من صاحب الخطة ؟ (ماك ـ جورج) و(كالاهان) .. »

قلت مفسرًا :

ـ « أى أن (كالاهان) هو المضاعف المشترك الأصغر فى كل هذا .. »

ـ « لكن إثبات هذا عسير فى مهنة خطرة بطبيعتها .. أنتما الآن تقدمان لى برهانًا لا يحتمل الخطأ .. »

ثم نظر إلى الصبى وقال :

ـ « سنقوم بترحيله إلى مصر بمجرد مايستعيد قدرته على المشى .. »

صحت فى احتجاج :

ـ « مصر ؟ إن البلاد العربية كلها غير آمنة فى هذه الفترة .. فالمغول يتوقعون الخطر منها .. »

قال فى ثقة :

ـ « سنعرف كيف نخفيه هناك بين الفلاحين أو سواهم .. لا بد من أن يترعرع (قطز) فى مصر إذا كانت النبوءة صادقة .. وبهذا لن نترك احتمالاً للفشل .. »

قلت له وقد تذكرت مشكلتنا الخاصة :

ـ « ثمـة نقطـة أخـرى .. إن جهـاز نقـل الجزيئـات الآن فـى حـوزة واحـد مـن الخاسـرين يُدعـى (لارى هولدن) .. وقد ذهب فـى مهمـة لـم يعـد منهـا حتـى الآن .. فهل عندك فكرة عن ؟ »

ـ « إن (لارى) قد خرج لنسف مركـز اتصـالات الـ (إيثرنِت) الخـاص بالمغـول .. والخطـة مـن تدبيـر (كالاهان) .. أعتقد أنه سيلاقى مفاجـأة غيـر سـارة إن كان لى أن أعتمد على حدسـى .. إن العثـور علـى جهازكما شبه مستحيل .. لكن عندى أملاً واهيًا .. »

ثم نظر إلى الأب .. وسأله :

ـ « هل هناك جثث جديدة فى (سنترال بارك) ؟ »

ـ يبدو أن هنـاك اثنتين .. »

قال لى وهو يحشو مسدسًـا ويدسـه فـى حزامـه .. ويتأكّد من وجود الرشاش والقنابل اليدوية :

ـ « إن المغول يعلقون قتلاهم فى (سنترال بارك) كالذبائح .. ويمنعـون دفنهـم .. نحتـاج إلـى حـظ غيـر عـادى كـى نجـد (لارى) هنـاك ، ونجـد الجهـاز فـى جيبه .. فلنأمل أن المغول لم يفتشوا جثته .. »

قال الأب مؤمنًا :

- « ولنأمل أن طلقاتهم لم تهشم الجهاز ! »

بدا لى الأمل واهيًا كأمل أن تمزق طلقة رصاص قلبك وتبقى حيًا .. لكنى تمسكت به على كل حال ..

- « هيا بنا ... »

وحمل الأب صغيره بين ذراعيه .. وأمسكت بـ (سلمى) من ذراعها .. واتجهنا نحو باب المخبأ .. كانت هناك دراجة بخارية خاصة بـ (أبو فراس) من دراجات الشرطة .. لكننا صرنا مضطرين للمشى ..

سألته ونحن نخترق الشوارع الخلفية لاهثين :

- « ما هى خطتك لتهريب الصبى ؟ »

قال وهو يتلفت حوله فى حذر :

- هناك طيار روسى يدعى (أنطون إيزاروفيتش) .. هو الذى يتولى هذه الأمور .. فالروس هم الذين اخترعوا دفاعات الرادار للمغول ، وهم الذين اخترعوا طائرات قادرة على اختراق هذه الدفاعات ! لقد قدموا للمغول السجن ، وقدموا للثوار المفتاح ! لذا أستطيع الدخول والخروج بحرية تامة .. »

- « أنت رائع يا (أبو فراس) ! »

ـ « هذا صحيح .. أنا (بابا نويل) العرب ها هنا .. وكلهم يعرفون أننى سأنقذهم من أى خطر .. »

ـ « نحن مدينون لك .. »

قال وهو يلهث فى ركضه وقد سبقنى ببضعة أمتار :

ـ « أنا كذلك مدين لكم .. فأنا فى الخامسة والأربعين من عمرى ، وقد صار الكفاح مهنة مرهقة لى .. عشرون عامًا أركض فى الشوارع الخلفية ، وأهرب السلاح ، وأطلق النار على المغول .. ثم ... »

ثم التفت للوراء والتمعت عيناه .. وأردف ... »

ـ « ثم جئتما لتقولا لى إن هناك أملاً .. بعدما ظننت أنه لا أمل هنالك ، وأن المغول باقون حتى تقوم الساعة .. من يدرى ؟ ربما لو عشت عشرة أعوام أخرى لصرت من قادة (قطز) .. لربما وقفت بجانبه فى تلك المعركة .. قلتم لى ما اسمها ؟ »

ـ « (عين جالوت ...... »

ـ « (عين جا ..... »

ولم يكمل حروف الكلمة .. لأن الليل استحال نهارًا .. ورأينا عشرات الكشافات مصوّبة نحونا من كل الاتجاهات .. كأن الشموس قد تحالفت علينا ..

ودوّت طلقات الرصاص كالسيل المنهمر ..

بصعوبة عرفت أن هذا هو صوت الرصاص ، وأن هذه الطلقات موجهة نحونا .. فقد بدا الأمر كحلم ملون غريب ..

- « اللعنة ! »

قالها وألقى بقنبلة انتزعها من حزامه .. وراح يركض نحو الجدار المجاور لنا .. فهرعنا نركض وراءه .. وشعرت بألم حاد فى كعب حذائى ، لا .. بل فى كعب قدمى .. لكنى لم أكف عن الركض ...

وحين نظرت لحظة إلى الوراء رأيت المكان قد استحال إلى ضباب كثيف عجزت الكشافات عن اختراقه ..

كانت قنبلة دخان ..

وتوارينا فى الفراغ ما بين بنايتين .. فراغ ضيق لكنه يسمح له بإطلاق الرصاص بغزارة ولا يسمح لمحاصرينا بالدنو .. لكنه مصيدة فئران لعينة لا يمكن البقاء فيها أكثر من دقائق ..

وسمعته يقول وهو يشهر بندقيته الآلية :

- « إنه (كالاهان) .. لقد أبلغهم بمقرى .. اللعنة ! إنهم يخشوننا حقاً ، وقد دفعهم الخوف إلى التخلى عن مراقبتهم الحذرة .. »

ثم نظر إلى الأب المذعور وقال له بلهجة لا تقبل المناقشة :

- « ستذهب إلى (جيمى) .. هو يعرف أين يقودك .. ولسوف يقوم (إيزاروفتش) بالفرار بك هذه الليلة .. »

وداعب وجه الصبى السقيم بسبابته .. وقال :

- « وداعًا أيها القائد (قطز) .. لا ترفق بهم .. واذكرنى بالخير فى كتب التاريخ التى ستصف مجدك .. يجب أن تدمّر الكمبيوتر (هولاكو) فى (سيبيريا) قبل أن تقارع جيوش (كتبغا) فى (عين جالوت) .. لا تنس هذا ! »

ثم نظر لى و(سلمى) وهتف بذات اللهجة :

- « أما أنتما فتذهبان إلى (سنترال بارك) وحدكما .. وإن لم تجدا الجهاز فاذهبا إلى (جيمى) طالبين العون .. وداعًا ! وخذا هذا معكما .. »

هتفت (سلمى) وهى ترمق المسدس الذى فى قبضتى :

- « سنبقى معك ! »

- « هل تمزحان ؟ لا بد من أن أغطى هروبكما بستار من النيران .. ثم إنهم سيحضرون قاذفات

اللهب حالاً .. وهى كفيلة بتحويل هذا المكان إلى سقر .. أسرعا ! »

واندفعنا نركض بين البنايتين قاصدين الجهة الأخرى غير المحاصرة .. ونحن لا نزال نسمع صيحته : (أسرعوا) ..

بعدها انطلق وابل من النيران من بندقيته الآلية ..

★ ★ ★

لم يكن هناك سوى الظلام عند نهاية الفراغ بين البنايتين ..

رحنا نركض فى المساحة الخالية المكشوفة ، ولحسن الحظ كانت هناك سيارتا أجرة تقفان بعيدًا ، وقد وقف سائقاها خارجًا يثرثران ويدخنان ..

وعلى الفور وثب الأب وابنه فى واحدة ، ووثبت و(سلمى) فى الأخرى .. ونظر السائقان لنا فى دهشة .. ثمة اتجه كل منهما إلى سيارته ..

أخرجت رأسى من النافذة ولوحت للأب ..

ربما لن يرى أحدنا الآخر ، لكنى أعرف أنه سيذكرنا طويلاً جدًا كما سنذكره .. هذا إن بقى أحدنا حيًا ..

هتف الأب بالإنجليزية :

ـ « سننجح .. اطمئن علينا .. المشكلة الحقيقية هى مشكلتكما ! »

ثم أردف بالعربية والسيارة تتحرك (حتى لا يفهم السائق كلامه) :

ـ « لا تتوقفا أبدًا حين ترونهم .. فهم لن ينذروكما أو يقبضوا عليكما أو يستجوبوكما .. بل سيطلقون الرصاص على الفور ! »

وتحركت السيارة بعيدًا عن عيوننا ...

وهنا رأينا لسان النار يخرج من الشقّ الذى كنا فيه بين البنايتين وعرفنا أن (أبو فراس) كان صادقًا ... رحمه اللّه .. لقد كان رجلاً شجاعًا !

ـ « (سنترال بارك) بأقصى سرعة .. »

قلتها للسائق الزنجى .. فسألنى بأسلوب الزنوج المميز فى الكلام :

ـ « هل عندك مشاكل مع المغول يا رجل ؟ أنا لا أريد مشاكل ! »

ـ « لا تقلق .. فقط تحرّك سريعًا .. »

وانطلق السائق ينهب الشوارع نهبًا .. الشوارع المظلمة الكئيبة التى كساها الجليد .. وعلى الرغم منى خرجت أنّة من بين أسنانى ..

ـ « هل أصبت ؟ »

ـ « نعم .. فى كعبى .. ولكن لا داعى للهستيريا .. الأشياء المهمة أولاً .. »

وهنا لمحنا الأضواء من ورائنا .. ودوت سرينة عربات الشرطة تولول منذرة بهلاكنا التام وموتنا الزؤام ..

قال الزنجى وهو يرمق المرآة :

ـ « اللعنة يا رجل ! انتما هاربان ! سأتوقف ! »

ـ « لا يا غبى .. فهم لا يتناقشون .. »

ـ « وأنا لا أريد مشاكل لعينة .. إنهم يعرفون رقم سيارتى الآن ! »

وأدار المقود ليقف إلى جانب الطريق ..

وداس الفرملة .. عندها جذبت يد (سلمى) وفتحت الباب الجانبى ووثبنا منه .. وأطلقنا ساقينا للريح ..

كان هناك زقاق ضيق .. فاندفعنا نجرى فيه .. واخترنا أول منعطف لليسار ثم ثانى منعطف لليسار ..

★ ★ ★

إنهم لن ينذروكما أو يقبضوا عليكما أو يستجوبوكما .. بل سيطلقون الرصاص على الفور ...

★ ★ ★

(سنترال بارك) ..

الحديقة الأسطورية تغفو فى الظلام وقد أشعرها الجليد ببرد شديد ..

إنها مكان غير مأمون فى عالمى .. يؤمه اللصوص وتجار المخدرات ، ولا يمكن المشى فيه ليلاً إلا بمطواة مفتوحة ..

لكنها - فى عالم القهر هذا - مكان مأمون .. من الغريب أن البلطجية فى هذا العالم وجدوا أنفسهم مرغمين على لعب دور الثوار ..

الخطر الوحيد هنا يأتى من الشرطة .. لا من أعدائها !

كنا نركض لاهثين ...

البخار يتصاعد من ثغرينا .. وآذاننا تصفّر ..

ثمة إحساس يغمرنى بأن هذه هى نهاية الفيلم ..

ترى هل يكون المخرج من التقليديين فينهى فيلمه نهاية سعيدة ، أم يكون ثائرًا من تلاميذ الواقعية الإيطالية فينهى الفيلم بموتنا شر ميتة ؟

إننى أفضل المخرج الثانى حين أذهب للسينما ..
لكنى فى الحياة أفضل بالتأكيد المخرج الأول ..
هه ! هه ! المزيد من البخار ...
وهناك - على ضوء مصابيح الصوديوم الخافت - استطعت أن أرى الأجساد المعلقة .. كل جسد معلق على عمود إضاءة ..

★ ★ ★

ودنونا بحذر من مشهد الهول هذا ..
كانت ستة أجساد .. اثنان منها بلا رأس ..
وقد تدلت الأجساد بحبال غليظة ربطت إلى السيقان .. وفى الضوء الخافت كان بوسعنا أن نرى الثقوب الدامية فى الأجساد .. فى الرءوس .. فى الأعناق .. فى العيون ...
مدّت (سلمى) عنقها إلى الأمام وشهقت ..
ثم إنها أفرغت معدتها .. وعندها استطاعت أن تتنفس ..
- « يا للهول ! »
كان هناك جسدان انتفخا وفاحت رائحة العفن منهما .. يمكننا إذن أن نستثنيهما .. فالأجساد

لا تتعفن بهذه السرعة فى الشتاء .. و(لارى هولدن) - لو كان قد مات - لا يمكن أن يكون قد مضى عليه أكثر من يومين .. وكانت هاتان هما الجثتان عديمتا الرأس ..

بقيت أربعة أجساد ..

اتجهت إلى العمود الأول .. ورحت أتسلق المعدن البارد ببطء شديد وتأملت الوجه الغائب فى سرّ الأسرار ..

كان أقبح من رأيت فيٍ حياتى ..

مددت جسدى محاولاً الوصول إلى جيبه .. لكنه كان بعيدًا عن متناول يدى .. رحت أحاول مرارًا ..

هنا صاحت (سلمى) وهى تنظر لأعلى نحوى :

- « (سالم) .. لا تضيّع وقتك .. اختر أكثر الجثث وسامة فلا بد أنه هو ! ألم يقولوا إن كنيته هى (الجميل) ؟! »

حقًا يا (سلمى) .. أنت ذكية حقًا ...

ورحت - وقد عدت إلى الأرض - أفتش عن أكثر الجثث جمالاً ..

يا لها من مهمة سخيفة ! إن الجثث كلها تتشابه ..

قناع الموت يشوه الوجوه كلها ، أكانت لـ(مارلين مونرو) أو أحدب (النوتردام) .. كان هناك فتى أشقر الشعر أزرق العينين .. ربما هو وسيم كذلك ..

وفى هذه المرة كان تصرفى إيجابيًّا .. أخرجت المسدس وأحكمت التصويب على الحبل الغليظ و .. بوم !

ووم ! ووم ! ووم ! راح الصدى يردد الطلقة عشرات المرات ، وعلى الأرض تمددت جثة الفتى والجليد يتناثر حولها ..

ـ « هل جننت يا (سالم) ؟ »

ـ هذه هى الطريقة الوحيدة لفحص الجيوب .. »

ـ « لكن الموتى سيسمعوننا ! »

ـ « إن المغول آتون هنا على كل حال .. فسائق سيارة الأجرة قد أخبرهم بكل شىء حتى اسم زوج خالته .. »

كنت أتكلم وأنا أبحث فى الجيوب ملهوفًا .. الدم المتجمد يلوث يدىّ ، وشعور حقير بأننى سارق جثث ..

لكنى تغلبت على تقززى وواصلت البحث ..

لاشىء ..

ونهضت باحثًا عن عمود آخر عليه جثة حسنة المظهر ..

كانت جثة شاب أسود الشعر .. ويبدو أنه لاقى عناء كبيرًا فى الموت فأتعبوه وأتعبهم ..

بوم ! سقطت الجثة وسط الثلوج .. ورحت أنقب فى جيوبها ..

لا شىء ...

وهنا خطرت لى فكرة .. لم لا يكون الـ ......

وهنا رأينا الطائرة قادمة ....

★ ★ ★

إنهم لن ينذروكما .. أو يقبضوا عليكما .. أو يستجوبوكما .. بل سيطلقون الرصاص على الفور ...

★ ★ ★

راتاتاتاتاتاه !

ورأيت خطًا من طلقات الرصاص يرتسم على الجليد فى اتجاهنا .. ومرّ الخط على بعد مترين منا .. ولمحت وجه (سلمى) يلتمع فى ضوء الكشاف القوى وهى تصرخ ، بينما الجليد يتناثر فى كل صوب ..

وحين ابتعدت الطائرة لتقوم بدورة أخرى ،

استطعت أن أعرف أنها طائرة عمودية .. وأن (مترليوز) هائل الحجم يخرج من بابها ..

- « (سالم) ! فلنهرب ! »

نعم .. هذا حق .. ولكن لأين ؟

ورأيتها ترجع لتعيد الكرّة .. فأمرت (سلمى) بالاحتماء خلف عمود .. وصوبت المسدس فى دقة .. وكتمت أنفاسى ..

إن الطائرة دانية جدًّا .. سأكون أحمق لو لم أصبها .. سأكون أحمق لو لم أرسلها إلى جهنم ..

وفى اللحظة التالية أطلقت الرصاص مرتين ..

ولم تنفجر الطائرة .. لكنى رأيت شيئًا يهوى منها كجوال ثقيل .. وسمعت صرخة مكتومة ورأيت الجليد يتصاعد كسحابة من طبشور ...

لقد سقط القناص ....

دارت الطائرة دورة أخيرة ثم ابتعدت ...

طبعًا لتحضر المزيد من الطائرات وعربات الشرطة وقاذفات اللهب .. يجب استغلال الثوانى الباقية لنا ...

عندى فكرة لا بأس بها ..

إنهم يسمون (لارى هولدن) باسم (الجميل) ..

قد تكون هذه دعابة فظة من التى يمارسها الرعاع أحيانًا .. بل نمارسها نحن حين نسمى طفلاً بائسًا

فقيرًا باسم (البرنس) .. أو نطلق على المصاب باللعثمة لقب (الفصيح) ...

ربما كان (لارى هولدن) هذا قبيحًا جدًّا .. وكانوا يتهكمون عليه ..

ومن أقبح من صاحب الجثة الأولى ؟

اتجهت نحو العمود وأطلقت طلقة واحدة ـ ربما هى الأخيرة فلم أعد أذكر ـ ورأيت جثته تهوى فوق الثلوج ..

صاحت (سلمى) محتجة :

ـ « لكن .. لكنه قبيح ! »

لكنى رحت أفتش جيوبه بعناية .. لحسن الحظ أن الطلقة التى قتلته كانت فى رأسه .. لكن .. لا يوجد جهاز ! لا يوجد شىء !

هنا شعرت بشىء بارز فى أسفل بطنه .. شىء حشرة هو بين جدار البطن وبين حزامه ...

دعوت الله ألا يكون هذا مسدسًا .. ألا يكون مليون دولار من دولارات المغول .. ألا يكون أى شىء سوى ......

وبعد لحظة خرج جهاز ناقل الجزيئات فى يدى !

كان سليمًا كالكمان ..

وبدا لى أروع شىء رأيته فى حياتى ...



هنا شعرت بشيء بارز فى أسفل بطنه .. شيء حشره هو بين جدار البطن وبين حزامه ..

ـ « (سلمي) ! إنه هنا ! »
ـ « حمدًا لله ! »
ودوّى هدير محركات طـائرات المغـول وسـيارات المغول .. وسمعنا طلقاتهم تمزق الهواء من حولنا ...
جريت كما لم أجر من قبل (إن كعبى يقتلنى) ..
وجرت (سلمى) كما لم تجر من قبـل .. وتلامـس جسدانا ...
تشبثت بذراعها .. وتركتها تضغط الأزرار ، بينمـا الكشافات تسلط علينا من كل صوب .. ودنت طائرتـان منا أكثر فأكثر ...
٥٢٠ ـ ج ـ ٧٧ ..
اضغطى زرّ الإدخال يا (سلمى) بسرعة ..
طلقة مرّت على بعد متر منا واصطدمت بالثلوج ..
لن يتخاذل الجهاز .. أعرف أنه لـن يتخـاذل .. فـلا وقت للمزاح ها هنا ..
هيا ... !
وتلاشت أرض المغول من حولنا .
ومن جديد اختلطت جزيئاتنا بجزيئات الكون ذاته ..
ولم يعد هناك قبل ولا بعد ....

★ ★ ★

خاتمة

مرحبًا .. أنا د. (رفعت إسماعيل) يعود لكم ..

لقد فرغت من مطالعة خطاب (سالم) ووجدته مسليًا بحق .. ربما هو بشع إلى حد ما .. ينبو عن الذوق أحيانًا .. مقبض دائمًا .. لكنه مسلّ ...

أنا - عن نفسى - أمقت المومياوات المشتعلة ، والجثث مقطوعة الرأس ، والطاعون بخراريجه الملأى بالصديد ..

لكن البعض يحبون هذه الأشياء .. وإننى لن أفهمهم أبدًا ..

يقولون إن مخرج الرعب الشهير (جون كاربنتر) قد تشاجر مع أحد المنتجين ، وطالبه الأخير بإعادة إخراج أحد أفلامه ، ليضيف له مزيدًا من الدماء والأطراف المبتورة (حتى لا يخيب أمل الشباب) !

لا بد أن هذا المنتج كان سيحب قصة (أرض المغول) كثيرًا ..

لكنى - برغم هذا - أجدها قصة جيدة عن القمع الوحشى .. ومحاولة الثورة ضد طغيان أعمى .. وخبال أحلام السيطرة لدى كل (ديكتاتور) رأته أرضنا التعسة هذه ..

إن الشعوب لا تموت .. والأمل لا يفنى ..
وبعد .....
كانت هذه هى القصة الثانية لـ (سالم وسلمى) ، والتى تأخرت دهرًا حتى قدمتها لكم .. وثمة قصة ثالثة ـ ربما تروق لكم ـ سأقدمها قريبًا جدًّا هى (أسطورة أرض العظايا) .. وقصة رابعة هى (أسطورة أرض الظلام) .. وهى آخر ما لدىّ حاليًّا من قصصهما ...
والآن نعود لعالمى اللطيف الرقيق ..
سأحدثكم عن مصاصى الدماء !
إننا لم نتحدث عنهم من فترة طويلة جدًّا .. وإننى لمندهش لأننى أهملت هذه القصة المحببة لدىّ كل هذا الوقت ..
إن الشاحبين يختلفون عن الآخرين ، لهذا يفضلون الوحدة .. ربما كان جارك منهم ، لكنك لن تعرف ذلك أبدًا ..
لكن إذا انقلبت الآية ووجدت نفسك وحيدًا فى مجتمع من الشاحبين .... عندئذ ....
ولكن هذه قصة أخرى ..

د. رفعت إسماعيل
القاهرة

★ ★ ★

روايات مصرية للجيب

ما وراء الطبيعة

روايات تحبس الأنفاس من فرط الغموض والرعب والإثارة

● صدر من هذه السلسلة ●

1 - أسطورة مصاص الدماء .
2 - أسطورة النداهة .
3 - أسطورة وحش البحيرة .
4 - أسطورة آكل البشر .
5 - أسطورة الموتى الأحياء .
6 - أسطورة رأس ميدوسا .
7 - أسطورة حارس الكهف .
8 - أسطورة أرض أخرى .
9 - أسطورة لعنة الفرعون .
10 - أسطورة حلقة الرعب .
11 - أسطورة الكاهن الأخير .
12 - أسطورة البيت .
13 - أسطورة اللهب الأزرق .
14 - أسطورة رجل الثلوج .
15 - أسطورة النبات .
16 - أسطورة الناقاراى .
17 - أسطورة حسناء المقبرة .
18 - أسطورة الغرباء .
19 - أسطورة بو .
20 - حكايات التاروت .
21 - أسطورة عدو الشمس .
22 - أسطورة المينوتور .
23 - أسطورة رعب المستنقعات .
24 - أسطورة إيجور .
25 - أسطورة الجنرال العائد .
26 - أسطورة المواجهه .
27 - أسطورتنا .
28 - أسطورة آخر الليل .
29 - أسطورة الجاثوم .
30 - أسطورة بعد منتصف الليل .
31 - أسطورتها .
32 - أسطورة رفعت .
33 - أسطورة أرض المغول .

د. رفعت إسماعيل

مع القراء

أصدقائى .

هو ذا الليل موعدى معكم قد جاء .. إنها الواحدة بعد منتصف الليل ، الساعة التى يصل فيها منحنى نشاطى الحيوى إلى ذروته ، وأنا جالس إلى مكتبى فى شقتى الخاوية المظلمة أرشف الشاى ، وأردّ على مزيد من خطاباتكم ..

● الخطاب الأول من الصديقة / منى الدواخلى :

ـ يبدو لى الاسم مألوفًا .. هل تلقيت خطابًا سابقًا منها ؟ لا أذكر حقًا .. (منى) ضد انفصال (سالم وسلمى) والكاهن الأخير .. وهو الرأى الذى ملت له بعد استشعار خطاباتكم ..

تقول إن وصفى لنفسى جعلها تشعر بأننى أشبه أباها .. كل احترامى لأبيك يا (منى) ، وأسأله أن يسامحنى فى هذا .. حرام أن تتهمى أحدًا بأنه يشبهنى يا (منى) !

● الخطاب الثانى من الصديقة / مهيتاب شعبان خليل ـ الجيزة :

أوراق (التاروت) حقيقة يا (مهيتاب) ومتداولة ، وتُباع فى مكتبات (القاهرة) الكبرى ، لكن هذا لا يعنى أن

لها قدرة على التنبؤ .. وهى مهمة جدًّا لمن يدعى ممارسة السحر .. ستعرفين قصة (هارى) مع الدمية في الكتيب رقم (37) أسطورة الدمية ، وفيه دراسة لا بأس بها عن (الفتيش) والطقوس الودونية أو (الفودو) ..

بالمناسبة .. خطك ليس رائع الجمال لكنه واضح ومريح ..

• الخطاب الثالث (أرجو أن يكون لواحد من ذوى الشوارب حتى لا أتهم بالتحيز للفتيات) هو من الصديق / أحمد فوزى عبد الرءوف ـ الهرم :

يبدو أننى رددت على (أحمد) من قبل فى الكتيب العشرين ـــ كما يقول ـــ وهو يشكرنى على ذلك .. أنا الشاكر لاهتمامك يا (أحمد) .

كلمة (تيمة) هى تعريب للفظة Theme الإنجليزية .. ومعناها (موضوع أو مبحث) كما أنها تعنى اللحن الذى يتكرّر فى المسرحية أو الفيلم السينمائى للدلالة على أحد الشخصيات .. وللفنان (هانى شنودة) تيمتان بارعتان تكررتا فى فيلم (المشبوه) ؛ واحدة للصّ وواحدة للضابط .. هكذا صار بوسعك أن ترى قدمين تمشيان ، وتسمع تيمة الضابط ، فتعرف صاحب القدمين فورًا .

أستعمل اللفظة كثيرًا للدلالة على نمط معين من القصص : تيمة الحصار ـ تيمة استكشاف المنزل المسكون ـ تيمة لمّ الشمل .. إلخ ..

لم أعرف قط فتاة حقيقية تدعى (شيراز) لكنه اسم جميل ، ولو كانت لى ابنة لاخترت لها هذا الاسم .

بانتظار خطابات أخرى يا (أحمد) ..

● الخطاب الرابع من الصديق / بدر قاسم بدر الدين - طوخ :

(بدر) طالب فى كلية طب (بنها) : يطلب النصح فى مهنته .. لست بارعًا فى النصح يا (بدر) .. تذكّر فقط أن تفعل الصواب وتكفّ عن الخطأ .. وهى نصيحة عسيرة جدًّا فى تنفيذها ، خاصة حين تتخرج ، ويغدو الخط الفاصل بين الصواب والخطأ مطاطًا ، نحركه يمينًا ويسارًا حسب مصالحنا .. وقتها حاول فقط أن تتذكّر مثاليتك وطهارتك الآن ..

دعوة رقيقة لزيارتك فى قرية (دندنا) بمركز (طوخ) .. أشكرك عليها وأرجو أن تكون مازالت مفتوحة - بعد عام ونصف - لكنى أطالبك بالاختيار بينى وبين المؤلف .. فأنا وهو لا نجتمع إلا لمامًا !

● د/ أحمد حربى - هو صاحب الخطاب الخامس وسلمه باليد للمؤسسة :

د.(أحمد) طالب فى كلية الصيدلة .. ربنا يستر .. عهدى بالصيادلة أنهم صيادو أخطاء بارعون فى عملهم ، ويمتازون بدقة عاتية تعلموها من دراستهم ؛ حيث كل شىء بالجرام والملليجرام والميكروجرام .

يقول د.(أحمد) إننى بارع فى الكتابة كـ (هتشكوك) ..
أشكرك يا (أحمد) لكن (هتشكوك) لم يكتب أية قصة قط
- لعلك تعنى هذا ؟ - لكنه كان ناشرًا بارعًا بالإضافة إلى عبقريته كمخرج .. وكان يشترى القصص القصيرة التى تروق له من مؤلفيها - بملاليم - فيخرج منها ما يخرج لحلقاته التلفزيونية (ألفرد هتشكوك) يقدم ، وينشر الباقى فى سلسلة روائية اسمها (قصص لا يسمحون لى بتقديمها على شاشة التلفزيون) .. وهو عنوان غريب مثير حقًا ..

لم ترق لى بتاتًا قصص (آكل البشر) و(البيت) و(اللهب الأزرق) و (بو) .. أنا بانتظار خطابات أكثر تفصيلاً تثرثر فيها يا د.(أحمد) .. ثرثر وخذ راحتك فهذا يناسبنى أكثر من خطاب من ثلثى صفحة ..

● الصديقة / نوران - لا مزيد من التفاصيل :

- (نوران) فى السابعة عشرة من عمرها .. تعاتبنى - بعد مديح رقيق - على (أسطورة الغرباء) لأننى أتيت بمثل ما نهيت عنه الصديقة (إنجى نبيل) ، حين حكيت قصة طويلة مثيرة ثم اتضح أنها دعابة لا أكثر ..

(نوران) تعانى مشكلة (الخوف من الموت) حتى صار النوم بالنسبة لها مغامرة غير محمودة .. وببراعة تقول إنها تخاف ثلاثة أشياء : المجهول لأنها لا تعرف

ما بعد الموت ـ وهو ما شعر به (هاملت) يومًا ما ـ والوحدة لأنها ستكون وحيدة فى القبر .. والعقاب لأنها تخاف من ذنوبها ..

تشعر (نوران) كذلك بالذنب لأنها تعبد اللّه لخوفها منه وليس لشدة إيمانها .. كذلك هى خجول جدًا .. عصبية جدًا .. تمقت الناس والزحام ..

أعتقد أنك تعقدين الأمور يا (نوران) .. فـ (اللّه تعالى) رحيم بنا .. وأنت فتاة طيبة مهذبة حساسة جدًا ، لهذا تحدث المراهقة كل هذه الزلزلة المريعة فى روحك .. كفى عن قراءة كتب (عذاب القبر) إياها واقرئى القرآن الكريم ذاته ، ولسوف تنتهى مشاكلك خلال عام أو عامين ..

● الصديق / إسلام محمد سمير أحمد ـ الاسكندرية :

أرسل لى (إسلام) خطابًا عليه الطابع البريدى داخل خطابه ـ وهو ما يسميه الأجانب اختصارًا (SASE) ـ ليضمن أن أرسل له ردًا .. كأن الموضوع موضوع بخل من جانبى .. سأردّ على خطابك أولاً ثم نناقش موضوع هذه الإهانة .. (إستنانى على باب المدرسة) .

بدأت الخطاب بمديح رقيق حقًا ، وإعجاب بشخصية (رفعت إسماعيل) الذى لا يخلو من بطولة كما تقول ..

ينتقل (إسلام) إلى نقد تفصيلى للسلسلة عددًا عددًا .. أجتزئ منه بعض الآراء : (كانت أسطورة الرجل الذئب

أقصر مما تستحق) لأنه كان المفترض أن تصدر فى كتيب كامل ، ولم نكن قد اتفقنا بعد على عدد صفحات الكتيب .. لهذا كانت أطول مما ينبغى لنصف كتيب وأقصر مما ينبغى لكتيب كامل .. وعلى كل حال يمكنك اعتبار أول عدد بمثابة (كتيب تجريبى) من حيث التصميم وعدد الصفحات ..

يمقت (إسلام) الروايات على غرار (مدام بوفارى) و(ماجدولين) و(آنا كارنينا) و(حذار من الشفقة) التى تنتهى بانتحار البطلة أو موتها ، ويفضل الروايات التى تنال فيها البطلة فرصة أخرى مثل (الخطيئة السابعة) و(فتاة من الريف) ..

فى الواقع يعتمد هذا يا (إسلام) على شخصية المؤلف وشخصية البطلة معًا .. وقد كان موت البطلات مبررًا فى كل الأمثلة التى ذكرتها أنت ..

ينتقد (إسلام) بعض الأغلفة التى رسمها الأستاذ (إسماعيل دياب) للسلسلة ، ومنها الغلاف الأول والثالث .. أحيانًا يكون الأستاذ (إسماعيل) راضيًا عن السلسلة ويقدّم غلافًا رائعًا مثل الغلاف الثانى والعاشر والثانى والعشرين مثلاً .. وأحيانًا لا يكون راضيًا أو مندمجًا تمامًا .. وهذا نوع من النقد الراقى من جانبه ، فهو بالمناسبة قارئ ممتاز ..

(إسلام) يحب المصطلحات وأسلوب (كشف الصنعة) على غرار (الرعب المنزلى) و(لمّ الشمل)

و(المظلة تحت مقعد الطائرة) ، ويحب (أرض أخرى) ويراها واضحة متكاملة لا ينقصها سوى العجوز (رفعت) .

ستقرأ قصة (فرانكنشتاين) قريبًا جدًا إن شاء الله - غالبًا فى الكتيب الواحد والأربعين - وكل ما أتمناه هو أن تحافظ على عبارة (لا بأس بها) بعد انتهائك من قراءة كل رواية .

بخصوص الأعداد الخاصة : راجع ردّى على الصديق (ضياء حسونة) فى الكتيب السابق ..

(إسلام) مثقف جدًّا وواسع العلم .. وهو - وهذا ما يروق لى - يقرأ السلسلة بعناية شديدة فلا تفوته نقطة أو فاصلة .. وخطابه طويل جدًّا ملىء بالمديح الذى أسعدنى كثيرًا لكنه سيُعدّ غرورًا فاضحًا منى لو نشرته كاملاً ..

لن أرسل لك ردًّا خاصًّا يا (إسلام) على سبيل الانتقام من إهانتك لى بإرسال المظروف وعليه الطابع البريدى .. لكنى بالتأكيد أشتهى المزيد من الخطابات .. اتفقنا ؟

● الصديق / ناصر السعيد السعيد على - المنصورة :

(ناصر) من قرية (محلة دمنة) .. إن الاسم ليس غريبًا علىّ .. إن لم تخنى الذاكرة كانت (محلة دمنة) من أشرس قرى (مصر) فى التصدى للاحتلال الفرنسى ، وبطلها (على العديسى) الذى أغرق عددًا لا بأس به من قوارب (بونابرطه) .. أرجو أن ترسل لى ما يؤكد أو ينفى هذا يا (ناصر) .

منحنى (ناصر) الشرف بأن أكون صاحب أول خطاب يرسله للمؤسسة على الإطلاق .. طالب طبّ هو أعتقد أنه أنهى دراسته الآن ، ويقول إنه يعتبر نفسه محاميًا عن السلسلة .. ويقول إنه سافر يومًا إلى (المنصورة) بحثًا عن رواياتى ، فلما لم يجدها هناك سافر إلى (القاهرة) ليجد أن مكاتب (الفجالة) قد أغلقت ، فالساعة كانت العاشرة مساء ! لا أدرى ما أقول .. إن كلمات كهذه تجعل الكاتب مدينًا للأبد .. مدينًا لحدّ مرهق ..

ويقول د.(ناصر) : « النقطة التى تحسب لصالح د.(نبيل فاروق) هى أنه يشرح فى الهامش كل شىء حتى (الأوكسجين) و(النوشادر) .. أما أنت فتتجاهل التفسير .. مثلاً من هو (قوبلاى خان) ، و(نسرا) ، و(وليم فوكنر) ؟ أسماء كثيرة جدًا كأنك تتعالى علينا .. يا عمّ حنّ علينا .. إحنا جيل غلبان مش لاقى حدّ يعرفه حاجة .. »

الواقع أن أسلوبى مختلف يا (ناصر) .. فأنا أشرح فى السياق ما أردت بذكر الاسم .. قلت إن (نسرا) صنم من أصنام الجاهلية .. و(فوكنر) أديب أمريكى اشتهر بغموض قصصه القصيرة .. و(براكسا) قلت إنها مسرحية للساحر اليونانى العظيم (أرستوفان) .. هذا كاف جدًا ويمكن استنتاجه دون هوامش .. فلا يبقى عليك إلا أن تقرأ (براكسا) أو تبحث عن قصص (فوكنر) ..

النقاط الأخرى التى تراها ضدى هى : الكذب (موضوع لقاء رجل الثلوج) .. الردّ باسم (رفعت إسماعيل) فلماذا لا يردّ المؤلف بنفسه ؟ العمر الذى يجرى بى بما لا يسمح لى بمغامرات أخرى ..

لقد رددت على هذه النقاط جميعًا يا (ناصر) ، وأعتقد أنك قرأت ردودى بعد ما أرسلت خطابك هذا ..

موضوع أن تلعب الروايات دورًا دينيًّا أكبر ، هو موضوع ذو شجونٍ يا (ناصر) .. إننى لا أجيد دور الداعية لكنى أقدّم عملاً (نظيفًا) قدر الإمكان ، وأحاول الحفاظ على الحدود والقيم .. راجع كتاب (الفن الإسلامى) للأستاذ (محمد قطب) .. ستجده يوسّع مفهوم الفن الإسلامى ليشمل قصائد لـ (طاغور) وقصصًا عاطفية لـ (محمود تيمور) .

ويقول (محمد قطب) ما معناه أن الفن الإسلامى ليس محدودًا بقصص الصحابة والبطولات التاريخية والشعر الدينى ، بل من الممكن أن يتسع لكل ما لا يعارض العقيدة والأخلاق ، ولا يعابث الغرائز أو يتحدّى التقاليد .. ومن هذا المنطلق يمكن القول إن أشعار (طاغور) تدخل فى نطاق الفن الإسلامى ..

هذا ليس كلامى ـ بالمناسبة ـ لكنه كلام مفكّر إسلامى عظيم مثل الأستاذ (محمد قطب) ..

نقطة أخيرة لاحظتها يا (ناصر) هى استخدام بعض ألفاظ عامية مثل (ده بتاع ربنا) .. أعتقد أن هذا ضرورى لتلوين الشخصيات .. لكننى متحمس للفصحى جدًا ولاستعمالها للتعبير عن العامية .. لاحظ كلام (الكمسارى) فى الكتيب الثلاثين ، وكيف حاولت أن أجعله يتكلم الفصحى لكنها فصحى فظّة قريبة جدًا من العامية .. لقد علمنا (توفيق الحكيم) كيف تتكلم الخادمة بالفصحى فنصدقها ، وكيف يتكلم أستاذ الجامعة بالفصحى فنصدقه ..

ويرى نقاد كثيرون أن (توفيق الحكيم) نجح بشدّة فيما فشل فيه (طه حسين) نفسه الذى لم يستطع جعل (آمنة) تتكلم كفتاة صعيدية بسيطة فى (دعاء الكروان) ..

أنت ذكى يا (ناصر) وحديثك شائق حقًا .. أنتظر منك خطابًا يؤكد أن العنوان ورقم الهاتف مازالا صالحين ..

● الصديق / محمد طلعت ـ الجيزة :

(محمد) يرى أن سلاسلنا كثيرة وباهظة الثمن وترهق جيب القراء .. الواقع يا (محمد) أننى أتلقى خطابات لا بأس بعددها تقول إن إصدارات المؤسسة أقل من اللازم ، وإن المفروض أن تكون السلاسل شهرية ..

ولكن دعنا نر ما تكلفك إياه (ما وراء الطبيعة) فى العام : ١٥٠ قرشًا × ٦ كتيبات = تسعة جنيهات فى العام .. تذكّر هنا أن الجريدة اليومية تكلفك ١٤٤ جنيهًا فى العام ،

ومجلة الأطفال الأسبوعية تكلفك ٧٢ جنيهًا فى العام ، وكيس البطاطس المحمرة الذى تلتهمه فتزداد جوعًا يكلفك ١٢٦ جنيهًا فى العام ، لو كنت تكتفى بكيس يوميًا طبعًا ..

حقًا لا أعتقد يا (محمد) أن السعر هو مشكلتنا الأولى ..

● الصديق / هشام يوسف ـ بنغازى ـ ليبيا :

نادرة حقًا هى الخطابات الليبية فى بريدى .. لاحظ (هشام) أننى قلت فى (النداهة) إننى عشت فى (كفر بدر) ثم انتقلت إلى (القاهرة) ، وقلت فى (البيت) إننى عشت فى (المنصورة) حتى التحقت بكلية الطب فى (القاهرة) .. لا يوجد تناقض يا (هشام) .. إن حياتى هى : (كفر بدر) .. (المنصورة) .. (القاهرة) .. بالترتيب ..

ويقول عن (أسطورة الغرباء) : « كم عدد السنين التى استغرقتها وأنت تحلم بهذا الحلم المنسق ، الملىء بقصاصات الجرائد والأفكار المدهشة والحلول المنطقية والسخرية ؟ إننى ـ وحياتك ـ لم أر قط حلمًا بهذا التناسق العجيب .. »

بالعكس يا (هشام) .. إن الأحلام قد تكون معقّدة جدًّا ، وتستغرق فترات زمنية هائلة ، فى حين أن زمن الحلم الفعلى لا يزيد على بضع ثوان .. وقد قالها (فرويد) مرارًا : لا وجود للزمان فى العقل الباطن .

• الصديقتان / خولة وعيشة حمود ـ دولة الإمارات :

خطاب بالعربية من (خولة) كتب بمنسق الكلمات ، وبه صورة مبهجة جدًّا للمقابر والجماجم فى ضوء القمر .. خطاب رقيق حقًّا ..

تسألنى : من أين آتى بكل هذه الأساطير ؟ كلها أساطير قديمة فى وجدان الشعوب يا (خولة) ، وإن كان المؤلف يرتجل أحيانًا ..

(عبير عبد الرحمن) بطلة (فانتازيا) ليست قريبة لى ..

أما خطاب (عيشة) ـ الذى يزدان بقبور مماثلة ـ فقد كتب بالإنجليزية .. وتعتذر عن مناداتى بلقب (عزيزى) لأننى لم أعد مرتبطًا بـ (هويدا) .. كما تعتذر عن كتابتها بالإنجليزية ، وكانت تودّ لو كتبت بالهندية التى تجيدها لولا شكها فى سعة علمى .. على قدر علمى يا (عيشة) لا توجد لغة اسمها (الهندية) مالم تكونى تعنين (الأوردية) ..

تقول إن (بدرية) و (يسرية) اللتين رددت عليهما فى الكتيب العشرين هما قريبتاها .. واسم الأخيرة هو (بُشرى) .. يبدو أن علىّ تبديل عوينات القراءة إذن .. وإننى لأعتذر لـ (بُشرى) بشدة ..

خطابك رقيق أشكرك عليه .. لكن (get bored) هى اللفظ الصحيح للملل وليس (get board) .. وأشكرك على أنك لا تشعرين بالملل بسبب القصص ولكن بسبب قلة صدورها !

● الصديقة / هبة ربيع رجب ـ مدينة ١٥ مايو :

خطاب عنيف جدًّا يا (هبة) ولا أدرى سبب ذلك .. ترين أننى أنانى ومغرور ، ودخلت وحدى من الباب تاركًا إياك فى الخارج ، متحولاً إلى (حائط بارد تقذف عليه الكلمات فتتهشم وتصبح هشيمًا) .. وأننى أرفض وجود وسيلة اتصال ، وبرغم هذا أعتبرك صديقتى ..

لحسن الحظ أنا لم أتحوّل إلى حائط بعد يا (هبة) .. وسأردّ على كل خطاباتك مرة واحدة فى كتيب قادم إن شاء اللّه ، لأننى أقوم بتجميعها معًا الآن وهى ـ بالمناسبة ـ عملية شاقة جدًّا ..

● الصديق / أمير محمد الصديق السعيد ـ المنصورة :

يسألنى (أمير) عن النهاية المفتوحة لـ (حسناء المقبرة) .. هى ليست نهاية مفتوحة أبدًا يا (أمير) .. فقط لم يمت الكائن البروتوبلازمى .. فرّ ليمارس نشاطه الرهيب فى مكان آخر مع أناس آخرين .. لقد فررت بحياتى لكن الكائن ظلّ حيًّا .. وهذا لا يجعلها نهاية مفتوحة أبدًا .. أضف لهذا أننى قدمت تفسيرًا كاملاً للغز فى الحوار الذى دار مع (براكسا) فى الفصل الأخير .. ليس من الضرورى أن أدمر الكائن كى تصير القصة (مغلقة) .. وإلا لصارت كل قصصى ذات نهايات مفتوحة بهذا المنطق ..

صدور الأعداد نصف شهرية مستحيل من الناحية الفنيــة .. وعلى كل حال المؤسسة هى التى تحدّد ذلك فلا دخل لى بالأمر .. أنا أثرثر فقط ولا أعلم شيئًا عن التفاصيل الإدارية ..

خطابك ممتع حقًا يا (أمير) .. وأنتظر المزيد ..

● الصديق / جون سمير فهيم ـ ملوى ـ المنيا :

يسألنى (جون) عما إذا كنت حقيقيًّا أم لا ؟ بالنسبة لنفسى أنا حقيقى تمامًا .. لكن المؤلف يزعم أننى من ابتكاره .. إنه غرور الشباب كما تعلم .. ويزعم المؤلف كذلك أن (حارس الكهف) وحش خرافى من ابتكاره ..

يقول (جون) : « أعلم أنك حين تقرأ اسم (ملوى) ستفكر فى ظاهرة (الإرهاب) التى انتهت هنا بسلام والحمد للّه .. أصبحت المدينة جميلة جدًّا ، وشوارعها بالكامل مرصوفة ومضاءة ، وبها كثير من النافورات الجميلة والأندية ، كما أنها مركز تجارى كبير لا تجد بها شارعًا إلا وبه عشرة محلات كبرى .. »

هذه معلومات تسعدنى .. وأدعو اللّه أن يحفظ مدينتكم دائمًا ..

● الصديقة / راوية أبو المعاطى على ـ القاهرة :

(راوية) فى العشرين من عمرها ، طالبة بمعهد اللاسلكى .. تقول لى إن الكاتب ليس مجرّد شخص يكتب ..

وليس ما يكتبه هو سبيل الاتصال الوحيد مع قارئه .. لهذا فمن حق القارئ أن يعرف عن المؤلف بعض المعلومات التى لا تضير الأخير ، وكان من الأفضل أن يردّ المؤلف بنفسه على خطابات القراء ..

الواقع يا (راوية) أن المؤلف شخص عادىٍ جدًّا ؛ لا يطير ولا يخرج البرق من أذنيه ، وليست له ثمانية أصابع فى كل يد .. لهذا لن يضيف التعريف به شيئًا لهذه الروايات ..

وفى رأيى أنه كلما عرفنا أقل عن المؤلف ، كلما صدقناه أكثر .. أما أنا ـ بطل الروايات ـ فمن صميم عملى أن يعرفنى الجميع ..

أرجو ألا يضايقك هذا الردّ ، فخطابك ملىء بالمجاملة .. وليس موقف المؤلف حبًّا للغموض قدر ما هو (إيثار للصمت حين لا يوجد ما يُقال) ..

ها نحن أولاء قد وصلنا إلى نهاية هذا الجزء ..

سأترككم الآن فى حفظ الله لأن ـ (تثاؤب) ـ الليل يلفظ آخر أنفاسه .. لكنى عائد مالم أمت حتمًا ..

د. رفعت إسماعيل

عنوان المؤسسة هو :

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع

٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية الرقم البريدى ١١٣٨١

رقم الإيداع : ١٦٠٦

المطبعة العربية الحديثة

٨ و ١٠ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية

القاهرة - ☎ ٢٨٢٣٧٩٢ - ٢٨٣٥٥٥٤